

فنون الأدب العربي
الفن القصصي

١

المقامة

بقلم
الدكتور شوقي ضيف



دار المعارف

فنون الأدب العربي
الفن القصصي

المقامة

يشارك في وضع هذه المجموعة
لجنة من أدباء الأقطار العربية

الطبعة الثالثة



دار المغارف بمصر

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابط يديل < mktba.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

فن المقامة من أهم فنون الأدب العربي ، وخاصة من حيث الغاية التي ارتبطت به ، وهي غاية التعليم وتلقين الناشئة صيغ التعبير ، وهي صيغ حُلِّيت بألوان البديع ، وزُيِّنت بزخارف السجع ، وعُسِيَّ أشدَّ العناية بنسبها ومعادلاتها اللفظية ، وأبعادها ومقابلاتها الصوتية .

وبدیع الزمان هو الذي مهَّد الطريق وعبَّده لظهور هذا الفن ، وخلفه الحريري ، فتبيَّن المعالم والصوَى بأوضح مما تبيَّن سلفه ، إذ كان أوسع ثقافة ، وأحكم صياغة ، وأقوى تعبيراً ، فإذا هو يصل بالفن إلى القمة التي كانت تنتظره ، وإذا مقامته تصبح المعجزة الخارقة التي لا تُسبِّق ولا تُسلِّح على مر العصور .

وعكف عليها الطلاب والأدباء في جميع الأقاليم العربية يتدارسونها ويحفظونها ويُرَتِّلونها على نحو ما تُرَتَّلُ الأناشيد الدينية . ولم تَعْقُهم عن إعجابهم بها حواجز الصناعة التي أقامها الحريري من كُنَايات وأمثال وألغاز أحياناً ، بل ظلوا خاشعين ، مشدوهين .

وكثُرَ مَنْ قَلَّدها الحريري واحتذوا على مثاله ، ولكنهم كانوا دائماً يقعون على السَّفْح من دونه ، إذ كانت أجنحتهم من الضعف بحيث لم يستطيعوا أن يجلِّقوا في الأفق الذي حلَّق فيه ، وبذلك ظل اسمه يلعب ويتألق طوال تسعة قرون .

حتى إذا كان القرن الماضي ظهر ناصيف اليازجي بلبنان ، ونسج المقامة نسجاً فريداً ، غير أنه لم يستطع أن يصعد إلى مراقي الحريري وإبداعه ،

لذ لم تكن له ملكاته ولا مواهبه . وكأنما كُتِبَ في ألواح القدر أن يظل الحريريّ
 يتيمّة الدهر وعبقريّة الفنّ الذي لا يبارى ولا يجارّى في هذا الفن .
 وقد حاولت أن أصور ذلك وأفسره بادئاً من الخطوات الأولى لصنع
 المقامة ، ومنتهياً بالخطوات الأخيرة . وفي أثناء هذه المحاولة رجعت إلى ما كتبه
 الباحثون المختلفون من عرب ومستشرقين عن المقسامة وأصحابها ،
 وبفضلهم جميعاً وضعت هذا الكتّيب . وأنا أقدمه إلى الشباب
 مؤملاً أن يشوقهم إلى قراءة هذا الفن والإدمان على مراجعة صُحفه عند
 أقطابه ، حتى يمتلكوا ناصية اللغة ، وحتى تتحول إليهم هذه الثروة اللفظية
 بجواهرها وعقودها المنظومة ، درة بجانب درة ، ولفظة بليغة بجانب لفظة بليغة ،
 فيكون لهم عتاد لغوي واسع ، ومخزون لفظي وافر ، بجانب الثقافة الحديثة
 والمحتويات الأدبية الجديدة . وأعترف بأنّي لم أكتب إلا لحة خاطفة ، ونظرة
 طائفة . والله وليّ الهدى والتيسير .

شوقي ضيف

القاهرة في أول فبراير سنة ١٩٥٤ م

معنى المقامة

١

المعنى اللغوي

إذا رجعنا إلى الشعر الجاهلي وجدنا كلمة مقامة تستعمل بمعنيين ، فتارة تُستعمل بمعنى مجلس القبيلة أو ناديها ، على نحو ما نرى عند زهير إذ يقول :

وفيهـم مَقَامَاتُ حَسَانٍ وَجُوهَهَا وَأُنْدِيَّةٌ يَسْتَتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفَعْلُ

وتارة تستعمل بمعنى الجماعة التي يضمها هذا المجلس أو النادي ، على نحو ما نرى عند لبيد إذ يقول :

وَمَقَامَةٌ غُلَبٍ^(١) الرِّقَابِ كَأَنَّهُمْ جِئَ لَدَى بَابِ الْحَصِيرِ^(٢) قِيَامُ

فالكلمة تستعمل منذ العصر الجاهلي بمعنى المجلس أو من يكونون فيه . وتقدم في العصر الإسلامي فنجد الكلمة تستعمل بمعنى المجلس يقوم فيه شخص بين يدي خليفة أو غيره ويتحدث واعظاً . وبذلك يدخل في معناها الحديث الذي يصاحبها . ثم نتقدم أكثر من ذلك فنجدها تستعمل بمعنى المحاضرة .

وعلى هذه الشاكلة تُعَفَّى الكلمة من معنى القيام وتصبح دالة على حديث الشخص في المجلس سواء أكان قائماً أم جالساً . وبهذا المعنى استعملها بديع الزمان في المقامة الوعظية ؛ إذ نرى أبا الفتح الإسكندري يخطب في الناس واعظاً واعظاً بديعاً ، وراع ذلك منه عيسى بن هشام فقال لبعض السامعين :

(١) غلب : جمع أغلب وهو الغليظ الرقة .

(٢) الحصير هنا : الملك .

« من هذا ؟ فقال : غريب قد طراً لا أعرف شخصه ، فاصبر عليه إلى آخر مقامته » .

٢

المعنى الاصطلاحي

وبديع الزمان هو أول من أعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحي بين الأدباء ، إذ عبر بها عن مقاماته المعروفة ، وهي جميعها تصور أحاديث تُلقَى في جماعات ، فكلمة مقامة عنده قريبة المعنى من كلمة حديث . وهو عادة يصوغ هذا الحديث في شكل قصص قصيرة يتألق في ألفاظها وأساليبها ، ويتخذ لقصصه جميعاً راوياً واحداً هو عيسى بن هشام ، كما يتخذ لها بطلاً واحداً هو أبو الفتح الإسكندري الذي يظهر في شكل أديب شحاذ ، لا يزال يروع الناس بمواقفه بينهم وما يجري على لسانه من فصاحة في أثناء مخاطباتهم .

وليس في القصة عقيدة ولا حبيكة ، وأكبر الظن أن بديع الزمان لم يُعْنِ بشيء من ذلك ، فلم يكن يريد أن يؤلف قصصاً ، إنما كان يريد أن يسوق أحاديث لتلاميذه تعلمهم أساليب اللغة العربية وتقفهم على ألفاظها المختارة .

فالمقامة أريد بها التعليم منذ أول الأمر ، ولعله من أجل ذلك سماها بديع الزمان مقامة ، ولم يسمها قصة ولا حكاية ، فهي ليست أكثر من حديث قصير ، وكل ما في الأمر أن بديع الزمان حاول أن يجعله مشوقاً فأجراه في شكل قصصى .

وعُمِيَ على كثير من الباحثين في عصرنا ، فظنوها ضرباً من القصص ، وقارنوا بينها وبين القصة الحديثة ، ووجدوا فيها نقصاً كبيراً . وهذا حَسْمٌ

لعمل بديع الزمان على معنى لم يقصد إليه ، فكل الذى قصده أن يضع تحت أعين تلاميذه مجاميع من أساليب اللغة العربية المنمقة ، كى يقتدروا على صناعتها ، وحتى يتيح لهم أن يتفوقوا فى كتاباتهم الأدبية .

ووضع ذلك فى صورة قصصية ، يكون فيها حوار محدود ، ويكون فيها ما يشوق ويجذب الناشئة للاطلاع على ما يؤلفه ويصوغه . واختار البطل أديباً شحاذاً ليتم له التشويق .

٣

خصائص وصفات

ليست المقامة إذن قصة وإنما هى حديث أدبى بليغ ، وهى أدنى إلى الحيلة منها إلى القصة ، فليس فيها من القصة إلا ظاهر فقط ، أما هى فى حقيقتها فحيلة يُطرفنا بها بديع الزمان وغيره لنطلع من جهة على حادثة معينة ، ومن جهة ثانية على أساليب أنيقة ممتازة . بل إن الحادثة التى تحدث للبطل لا أهمية لها ، إذ ليست هى الغاية ، إنما الغاية التعليم والأسلوب الذى تُعرض به الحادثة . ومن هنا جاءت غلبة اللفظ على المعنى فى المقامة ، فالمعنى ليس شيئاً مذكوراً ، إنما هو خيط ضئيل تُنشرُّ عليه الغاية التعليمية .

ولعل ذلك ما جعل المقامة منذ ابتكرها بديع الزمان تنحو نحو بلاغة اللفظ وحب اللغة لذاتها فالجوهر فيها ليس أساساً . وإنما الأساس العرض الخارجى والحلية اللفظية . وكان لذلك وجه من النفع فإن الأدباء انساقوا إلى الثروة اللفظية ، وأخذوا يبتكرون صوراً جديدة للتعبير ولكن فى حدود سطحية .

وكأنما أجموا عقولهم وأطلقوا ألسنتهم ، فلم يتجهوا بالمقامة إلى وصف حوادث النفس وحركاتها ، ولا إلى الإفراح للعقل كى يعبر عن العواطف ويحللها ، وإنما اتجهوا بها إلى ناحية لفظية صرفة ؛ إذ كان اللفظ فتنة القوم ، وكان السجع كل ما لفتهم من جمال فى اللغة وأساليبها ، وكانت ألوان البديع كل ما راعهم منها ومن أسرارها .

وتقدمَ بديع الزمان فى مقامته فأقام لهم معارض منسقة من ذلك ، وتبعه الحريرى ، وتوسع من خلفهما بالمقامة فأجروها لا فى تعليم الأساليب الأنيقة حسب ، بل أيضاً فى مختلف الشؤون الثقافية . فحملوها نَحْوًا وفِقْهًا وطبًّا ، ووضعوا فيها مناظرات خيالية ، كما وضعوا بها أحياناً جوانب من مجتمعاتهم ؛ ولكنهم لم يفكوا عنها أبداً قيود اللفظ وأسجاعه ، وما رَسَفَتْ فيه من أغلال البديع وأثقال اللغة وألفاظها العويصة ، بل كان ذلك مقياس المهارة والبراعة .

٤

فى الآداب العالمية

عُرِفَت المقامة منذ وقت مبكر فى الأوساط الفارسية ، فقد ألف القاضى حميد الدين أبوبكر بن عمر الباهى ثلاثاً وعشرين مقامة على نسق مقامات الحريرى وأتمها سنة ٥٥١ هـ . وكذلك عرفت فى الأوساط اليهودية والمسيحية الشرقية ، فترجموها وصاغوا على مثالها باللغتين العبرية والسريانية .

أما فى أوربا فنحن نعرف أن عناصر كثيرة من القصص العربى تغلغت هناك منذ أواخر العصر الوسيط وأثناء العصر الحديث ، وخاصة ما كان

موضوعه الرحلات وعجائب المخلوقات . وفي كل يوم يُظهر الباحثون في عصرنا أن الروح العربي والشرقى على العموم وجد له هناك منافذ وأبواباً كثيرة لا فى الآثار الممتازة حسب ، بل فى القصص الشعبى أيضاً .

ومنذ العصور الوسطى والاختلاط قائم بين الشرق والغرب ، بل إنه يتعمق التاريخ منذ عصوره الأولى، ومن أجل ذلك يكون الزعم بأن المقامة العربية وجدت طريقها إلى الآداب الأوربية ليس زعمًا فائلا ، بحكم أنها جزء من الحركة الأدبية العربية ، وبحكم أنها جزء من هذه المادة الكبيرة التى نُقلت عن العرب إلى أوربا ، فتفاعلت معها ، وأحدثت نهضتها .

وقد كان الاتصال بالآداب الشرقية عربية وفارسية من بدع الحركة الرومانسية كما هو معروف عن فيكتور هيجو فى فرنسا وجوته فى ألمانيا ويرون وسكوت فى إنجلترا . وإذا رجعنا إلى مقامات الحريري وجدنا المستشرقين يُعنون بها ، فتترجم نماذج منها إلى اللاتينية ، وتُترجمُ إلى الألمانية والإنجليزية . وهذا معناه أنها وضعت تحت أعين القوم ليقروها ويتأثروا بها .

على أنه ينبغى أن نلاحظ أن تأثيرها كان محدوداً ، وخاصة إذا وازنا بينها وبين ألف ليلة وليلة مثلاً ، لأن الأخيرة ذات موضوع قصصى واضح ، ولذلك أقبل عليها الأوروبيون وتأثروا بها تأثراً واسعاً ، وخاصة من نواحيها الخرافية الخيالية . أما المقامات فمن الصعب أن نتبين أثرها ؛ لأن القصة ليست عمادها ، إنما عمادها الأسلوب وما يحمل من زخارف السجع والبديع . ومع ذلك يمكن أن نرى أثرها فى بعض القصص الإسبانية الذى يصف لنا حياة المشردين والشحاذين . ولعل من الطريف أن لهذا القصص عندهم بطلاً يسمى بيكارون (Picaroon) وهو يشبه من بعض الوجوه أبا الفتح الإسكندرى عند بديع الزمان ، وأبا زيد السروجى عند الحريري .

وليس معنى ذلك أن المقامات أثرت تأثيراً واسعاً في الآداب الأوربية ،
فقد كان تأثيرها ، ولا يزال ، ضعيفاً ، لأنها لا تقوم على سَنَد حقيقى
من القصص ، فلم تنعمق آداب القوم ولم تنفذ إلى أعمالهم كما نفذت ألف ليلة
وليلة .

نشأة المقامة

عند بديع الزمان

١

بديع الزمان

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى الملقب بلقب بديع الزمان ،
وُلِدَ في هَمْدَان ، وهي مدينة جبلية في إيران سنة ٣٥٨ للهجرة . وفي رسائله
المطبوعة دلالات مختلفة على أنه من أسرة عربية كريمة استوطنت هناك .
ونراه يقول في أول رسالة له متلطفاً إلى مَنْ راسله : « إني عبد الشيخ ، واسمي
أحمد ، وهَمْدَان المولد ، وتَغْلِب المورد ، ومُضَرَّ المَحْتَد » . فهو
ليس فارسياً كما قد يُظَنُّ ، وإنما هو عربيٌّ مُضَرِّيٌّ تَغْلِبِيٌّ .

وأخذه أبوه بالتعليم والتثقيف ، فاختلف إلى دروس العلماء والأدباء في
بلدته ، وتلقَّن على أيديهم ما شحَّد به عقله من دروس دينية ، وأخرى لغوية
وأدبية . وأهمُّ أساتذته الذين خرَّجوه أبو الحسن أحمد بن فارس ،
صاحب كتاب المُجْمَل ، وبينهما مراسلات ، ونراه يقول له في إحدى
رسائله :

لَا تَلَسُّنِي عَلَى رَكَائِكَ عَقْلِي أَنْ تَيَقَّنْتَ أَنَّي هَمْدَانِي

وما زال يختلف إلى حلقات هذا الأستاذ المشهور وغيره ، حتى أتمَّ
دروسه ، وأكمل تحصيله من اللغة والشعر والنثر .

ولا يصل إلى السنة الثانية والعشرين من عمره حتى يفكر في الرحلة عن
بلدته ، وفي وصفه لها بقوله :

هَمْدَانُ لى بلدٌ أقول بفضلِهِ لكنه من أقبح البلدانِ
صَيَّافُهُ فى القُبُحِ مثل شيوخِهِ وشيوخه فى العقل كالصَّيَّانِ

ما يدل على أنه لم يكن معجَباً بها . فولَّى وجهه عنها ، وقصد إلى
حضرة الصاحب بن عباد فى الرِّى ، وكان اسمه طبق الآفاق ، لا لأنه
وزير البويهيين الأوّل حسب ، بل لأنه أكرم قُصَّاده من الشعراء والأدباء
وأجزل لهم العطاء .

ونزل بديعُ الزمان بساحته ، ومدحه ببعض شعره ، وأعجب به
الصاحب لفصاحته ، وقربه منه ، وأحضره مجالسه ، ورأى فيه مخايل ذكاء
شديد ، إذ كان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية بالأبيات
العربية ، فيجمع بين الإبداع والإسراع . ونراه يتركه إلى جرجان حيث ظلَّ
حَقِبة فى رعاية أبى سعيد محمد بن منصور . ويظهر أن بعض الناس هناك
أوغروا صدره عليه ، فيسمّ خراسان ، واتجه إلى نيسابور .

وفى طريقه إليها خرج عليه لصوص ، فسلبوه كل ما معه ، وصوّر نهيمهم
له فى بعض رسائله ، إذ يقول من رسالة : « كُتِّبَ وَأَنَا أَحْمَدُ اللَّهِ إِلَى الشَّيْخِ ،
وَأَذْمُ الدَّهْرَ ، فَمَا تَرَكَ لى فِضَّةً إِلَّا فَضَّضَهَا ^(١) ، وَلَا ذَهَبًا إِلَّا ذَهَبَ بِهِ ،
وَلَا عَقَّارًا إِلَّا عَقَّرَهُ ^(٢) ، وَلَا ضَيْعَةً إِلَّا أَضَاعَهَا ، وَلَا مَالًا إِلَّا مَالَ إِلَيْهِ ،
وَلَا حَالًا إِلَّا حَالَ عَلَيْهِ ، وَلَا فَرَسًا إِلَّا افْتَرَسَهُ ، وَلَا سَبَدًا ^(٣) إِلَّا اسْتَبَدَّ بِهِ ،
وَلَا لَبَدًا ^(٤) إِلَّا لَبَدَ فِيهِ ، وَلَا بَزَّةً ^(٥) إِلَّا بَزَّهَا ، وَلَا عَارِيَةً إِلَّا ارْتَجَعَهَا ،
وَلَا وَدِيعَةً إِلَّا انْتَزَعَهَا ، وَلَا خَلِيعَةً إِلَّا خَلَعَهَا . وَأَنَا دَاخِلُ نَيْسَابُورَ ، وَلَا حَلِيعَةً
إِلَّا الْجُلْدَةَ ، وَلَا بُرْدَةً إِلَّا الْقَشْرَةَ » .

(١) فضها : أخذها وبدها . (٢) عقر هنا : استولى على . (٣) السبد : الثوب .

(٤) اللبد : الصوف وفى المثل : ماله سبد ولا لبد ، أى لا قليل ولا كثير .

(٥) البزة : الثياب .

ونزل نيسابور ويقول الثعالبي : إنه ألقى عصاه بها سنة ٣٨٢ للهجرة ،
وفيها ناظر أبا بكر الخوارزمي كبير أدباء العصر ومعلميه ، وانتصر عليه في
مناظرته ، فطارت شهرته . وألف حينئذ مقامته وألقاها على التلاميذ ، فأعجبوا
بها إعجاباً شديداً .

ويظهر أنه اتصل برؤساء هذه البلدة من بني ميكال ، وأنهم تابعوا
عليه كثيراً من يرهم وفضلهم ، وما زال مرموقاً بأعينهم حتى نقر منهم .
وفي رسائله رسالتان توضحان هذه النفرة . وهكذا لم يمتكث بنيسابور أكثر
من عام واحد ، فقد فارقتها سنة ٣٨٣ ومضى على غلوائه في الاغتراب
يرحل من بلد إلى بلد في خراسان ، حتى إذا نشبت الحرب بين السامانيين
أصحاب السلطان بها والغزنويين رأيناه يتركها إلى سجستان ، وهي ولاية كانت
بأقصى الشرق من إيران .

وخرج عليه في طريقه لصوص من الأتراك سلبوه ما معه ، وشكا منهم في
بعض رسائله ، واستمر حتى نزل عند أمير سجستان خلف بن أحمد
(٣٤٤ - ٣٩٩ هـ) وهو — كما يبدو من وصف بديع الزمان له في رسائله —
شخصية ممتازة ، إذ كان أديباً ، وكان مثقفاً . وقد ألف فيه ست مقامات
أضافها إلى مقاماته ملحقاً فيها ونوه بفضله وكرمه ، إلا أنه لم يلبث أن نقر
منه . وربما شعر عنده بشيء من التهاون لا يرضاه ، فاستأذنه في الذهاب إلى
هراة بأفغانستان .

وكانت هراة تابعة للدولة الغزنوية التي ظهرت حينئذ ، وربما كان بديع
الزمان يريد أن يتصل بالسلطان محمود الغزنوي صاحب الفتوح الكبيرة في
الهند وفي إيران ، وأن يصبح من حاشيته أو من كتّابه . ويقول الثعالبي :
إنه قدم عليه ، وروى له قصيدة في مديحه يقول فيها :

أفريدونُ في التاج أم الإسكندرُ الثاني
أم الرجعةُ قد عادتُ إلينا بسليمان

غير أنه لم يلزم حضرته ، بل عاد إلى هراة على كثرة شكواه منها في رسائله . وربما كان السبب في أنه لزمها ، ولم يفارقها ، أنه أصهر فيها إلى رجل يسمى الخُشْنامي . وأنجب أولاداً واقتنى ضياعاً . وبين رسائله رسائل مختلفة كتب بها إلى والده يذكر له فيها أن له بهراة عقاراً ومزارع ، ويطلب منه أن يرحل إليه هو وإخوته وعمه .

وكل ذلك يدل على أنه عاش في أواخر حياته عيشة ثرية ، بل عيشة كريمة وقد أصبح كعبة القصد ، يقصدون إليه ليشفع لهم عند الأمراء ، يقول : « وهؤلاء الصدور يرون أن الشمس من قبلي تدور » . على أن الدائرة لم تلبث أن دارت عليه ، فلبى نداء ربه وهو لا يزال في الأربعين من عمره ، إذ توفي سنة ٣٩٨ هـ .

• • •

٢

تأليف بديع الزمان لمقامته

ألف بديع الزمان مقامته في أثناء نزوله بنيسابور ، ويقال إنه كان يختم بها دروسه على الطلاب ، ولا نعرف شيئاً عما كان يلقيه عليهم من دروس ومحاضرات ، وأكبر الظن أنه كان يحاضرهم في مسائل لغوية ونصوص أدبية . ونظن ظناً أنه كان يعرض عليهم أحاديث ابن دُرَيْد الأربعين التي اتجه بها إلى غاية تعليم الناشئة أساليب العرب ولغتهم .

ولإنما نربط بين دروسه وبين أحاديث ابن دريد، لأنها هي التي ألهمته مقامته، يقول الحُصْرِيُّ: إنه «لما رأى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً، وذكر أنه استنبطها من يتابع صدره، وانتخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها إلى الأفكار والضمائر، في معارض عَجَسِيَّة، وألفاظ حُوشِيَّة... عارضه بأربعمائة مقامة في الكُدِّيَّة، تدوب ظَرْفًا، وتقطر حسناً».

وقد رأينا في غير هذا الموضع أن كلمة مقامة معناها حديث، وفي هذا ما يربط أدق الربط بين العاملين، ويستطيع القارئ أن يرى ذلك في وضوح إذا رجع إلى كتاب الأملاني لأبي علي القالي، وهو الكتاب الذي يحتفظ بأحاديث ابن دريد الأربعين.

ولا تدور هذه الأحاديث على الكُدِّيَّة، كما هو الشأن عند بديع الزمان، ومع ذلك فالصلة بين العاملين واضحة. وذلك أن أحاديث ابن دريد تصاغ في شكل رواية وسند يتقدمها، ثم هي غالباً مسجوعة، وتمتلئ باللفظ الغريب. فهي أحاديث ألقت لغرض تعليم الناشئة اللغة، بالضبط كما حاول بديع الزمان في أحاديثه، وإن كانت خفيفة رشيقة.

ويصرح الحُصْرِيُّ بأن بديع الزمان أنشأ أربعمائة مقامة، ومن قبله صرَّح بذلك الثعالبي في اليتيمة، بل صرَّح به بديع الزمان في بعض رسائله. وربما كان ذلك غلطاً من ناسخ الرسائل، فمجرد معارضة بديع الزمان لابن دريد في أحاديثه الأربعين يقتضي أن تكون أحاديثه أو مقاماته أربعين أيضاً.

ويظهر أنه صنع في نيسابور أربعين مقامة فقط، ثم رأى أن يزيد عليها

مقامات أخرى بعد مبارحته لها ، فزاد ستاً في مديح خلف بن أحمد في أثناء نزوله عنده ، كما زاد خمساً أخرى . وبذلك أصبحت المقامات نيفاً وخمسين .

على كل حال أنشأ بديع الزمان مقامته معارضة لأحاديث ابن دريد ، وإن من يقرأ الأملى ويتعقب بديع الزمان في عمله يرى الصلة واضحة تمام الوضوح بين الصنيعين . وإن المقامة الأسدية عنده لتعد صيغة نهائية لصفة الأسد في ذيل الأملى ، وكذلك الشأن في المقامة الحمدانية وما جاء بها من صفة الفرس فإنها تكميل وتتميم لما جاء في الأملى من وصف الفرس .

وكثير من الأدعية والمواظع في المقامات يتصل اتصالاً مباشراً بما في الأملى . ونفس الحكم والأمثال والوصايا كلّ ذلك نجد صورته واضحة عند بديع الزمان ، وبين مقاماته مقامة تسمى الوصية ، وأخرى تسمى الوعظية . وليس ذلك حسب ، فقد تكون الفكرة التي أدار حولها مقاماته ونقصد الكدّية أو الشحاذاة استمدها مباشرة من « خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام » التي رواها صاحب الأملى عن ابن دريد . ومعنى ذلك أن الأدلة كثيرة على أن بديع الزمان تأثر ابن دريد في مقامته ، وأنه عارضه بها معارضة . على أنه ليس وحده الذي ألهم البديع مقامته ، فهناك عمل آخر للجاحظ أثر فيه أثراً بليغاً ؛ إذ تحدث في بعض كتبه عن أهل الكدّية حديثاً طويلاً وقصصاً نوادرهم . وقد احتفظ البيهقي في كتابه المحاسن والمساوى ص ٦٢٢ بفصل طريف من هذا العمل .

ونحن لا نطلع على هذا الفصل حتى نقطع بأن البديع اطلع على هذا العمل للجاحظ ، وأنه هو الذي أوحى إليه أن يُدير أغلب مقاماته على الكدّية . والفصل يبدأ بمحاوراة بين شيخ من أهل الكدّية وشاب منهم حديث العهد بالصناعة ، وقد سأله عن حاله ، فسبّ الكدّية وصناعتها ، فغضب الشيخ وثار

لصناعته ، وأخذ يتحدث عن شرفها وأن صاحبها في نعيم لا ينفد « فهو على بريد الدنيا ومساحة الأرض ، وخليفة ذى القرنين الذى بلغ المشرق والمغرب حيثما حلَّ » ، لا يخاف البؤس ، يسير حيث شاء يأخذ أطيب كل بلدة . ونراه يذكر له الإمام صاحب الكدية بكل بلدة في موسم حصادها يأكل من طبيباتها « فهو رضى الحال ، حسن البال ، لا يغم لأهل ولا مال ، ولا دار ، ولا عقار » . ثم يقص على الشاب أنه دخل بعض بلدان الجبل ووقف في مسجدتها الأعظم وعليه فوطاة قد انتثر بها ، وتعمم بحبيل من ليف وبيده عكاز ، فنادى في الناس ، فاجتمعوا عليه فقال :

« يا قوم ! رجل من أهل الشام ، ثم من بلد يقال لها المصيصة ^(١) من أبناء الغزاة والمرابطين في سبيل الله من أبناء الركاضة وحرسه الإسلام غزوت مع والدى أربع عشرة غزوة ، سبعاً في البحر ، وسبعاً في البر ، وغزوت مع الأرمنى . قولوا : رحم الله أبا الحسن ، ومع عمر بن عبيد الله . قولوا : رحم الله أبا حفص ، وغزوت مع البطال بن الحسين ، والرزداق بن مُدرك ، وحمدان ابن أبى قتيبة . وآخر ما غزوت مع يازمان الخادم ، ودخلت قسطنطينية ، وصليت في مسجد مسلمة بن عبد الملك ، من سمع باسمى فقد سمع ، ومن لم يسمع فأنا أعرفه نفسى ، أنا ابن الغزير بن الركان المصيصى المعروف المشهور ، فى جميع الثغور ، والضارب بالسيف والطاعن بالرمح ، سد من أسداد الإسلام . نازل الملك على باب طرسوس ، فقتل الذرارى ، وسبى النساء ، وأخذ لنا ابنان ، وحملوا إلى بلاد الروم . فخرجت هارباً على وجهى ، ومعى كُتب من التجار ، فقطعت على ، وقد استجرت بالله ثم بكم ، فإن رأيتم أن تردوا ركننا من أركان الإسلام إلى وطنه وبلده ؟ .

(١) من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم .

فوالله ما أتممت الكلام حتى انهالت على الدراهم من كل جانب ، وانصرفت ومعى أكثر من مائة درهم . فوثب إليه الشاب وقبّل رأسه ، وقال : أنت والله معلم الخير ، فجزاك الله عن إخوانك خيراً . »

ولا يتم هذا الفصل الطريف عند ذلك ، بل يعرض في إسهاب لحيل المُكْدِنين في استخلاص الأموال والطعام من الناس ، ويروى بعض نوادرهم . وكل من يقرأ هذا الفصل ويقرأ مقامات البديع لا يستطيع أن يجمد أثره فيه .

ومعنى ذلك أننا نظن ظناً أن البديع قد استوحى في عمله ما كتبه الجاحظ وقصّه عن أهل الكدية ، كما استوحى في عمله أيضاً ما كتبه ابن دريد من أحاديثه المعروفة في كتاب الأُمالي . فهو قد اطلع على العاملين . ومن غير شك يعلو في التأثير فيه العمل الأول على العمل الثانى ، فابن دريد وجهه ليكتب أحاديث تعليمية أى أنه أثر فيه من جهة الشكل ، أما الجاحظ فأثر فيه من جهة الموضوع ، إذ جعله يدير أحاديثه أو مقاماته على الكدية .

ولا بد أن نضيف إلى عمل الجاحظ عملاً آخر لا يقل أهمية عن عمله ، بل قد يتقدمه ، وهو بروز هذه الطائفة من أصحاب الكدية في عصر البديع ، وكانوا يعرفون حينئذ بالساسانيين نسبة إلى ساسان ، وهو شخص من بيت ملكى قديم في فارس يقال إن أباه حرمه الملك ، ويقال إنه كان ملكاً ، واغتصب منه الملك داراً ، فهام على وجهه محترقاً للكدية . وهى أسطورة .

واشتهر من هذه الطائفة في عصر البديع شاعران عقد لهما الثعالبى في يتيّمته فصلين طويلين ، وهما : الأخنف العُكْبَرى وأبو دُلْف الخزرجى . أما الأخنف فيقول عنه : « شاعر المُكْدِنين وظريفهم » ويسوق له قصيدة طويلة صور فيها صناعة الكدية ، وتحدّث عن مصطلحاتها اللفظية وحيل أصحابها حديثاً مفصلاً . وأما أبو دُلْف فيقول فيه : « شاعر كثير الملح

والطُّرْف ، مشحوذ المديّة ، في الكُدِيّة ، خَسَقَ التسعين في الإطراب
والاغتراب ، وركوب الأسفار والصعاب ، وضرب صفحة المحراب بالحراب ،
في خدمة العلوم والآداب » ويروي له قصيدة عارض بها قصيدة الأحنف في
حرفة الكدية ومصطلحاتها .

وصلة البديع في مقاماته بهذين الشاعرين وتأثره بهما يقوم عليهما أدلة
كثيرة ، فهو في المقامة الأولى يُجْرَى على لسان أبي الفتح بطل مقاماته هذين
البيتين :

وَيُحَكِّكَ هَذَا الزَّمَانُ زَوْراً فَلَا يَغْنَزُكَ الْغَرُورُ
لَا تَلْتَزِمُ حَالَهُ وَلَكِنْ دُرٌّ بِاللَّيَالَى كَمَا تَدُورُ

وهما من شعر أبي دلف الذي رواه الثعالبي في يتيمة . وليس هذا كل
ما نجده من صلة أو تأثر فإن من يقرأ المقامة الرُصَافِيَّة للبديع يشعر أنه نثر
فيها قصيدتي الأحنف وأبي دلف اللتين صوراً فيهما حيل المكدين . وقد
سمى إحدى مقاماته باسم المقامة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة ، وهي تجرى
على هذا النمط :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : أحلّتنى دمشقَ بعضُ أسفاري ، فبينما
أنا يوماً على باب داري ، إذ طلع عليّ من بني ساسان كَتَبِيَّةٌ قد لفوا
رعوسهم ، وطمّلوا بالمَغْرَةِ^(١) لبسوسهم ، وتأبّط كل واحد منهم حجراً
يدق به صدره ، وفيهم زعيم لهم يقول وهم يرأسلونه ، ويدعو ويحاجونه ، فلما
رأني قال :

أريد منك رَغِيفاً يعلو خُيُواناً^(٢) نظيفاً

(١) المغرة : طين أحمر يصنع به .

(٢) الخوان بضم الخاء وكسرها : المائدة قبل وضع الطعام .

أريد بِقَلًا قَطِيفًا ^(٢)	أريد مِلْحَمًا جَرِيشًا ^(١)
أريد خَلًا ثَقِيفًا ^(٤)	أريد لَحْمًا غَرِيضًا ^(٣)
أريد سَخْلًا ^(٥) خُرُوفًا	أريد جَدِيًّا رَضِيعًا
يَغْشَى إِنَاءً طَرِيفًا	أريد مَاءً بِشَلَجٍ
أَقُومُ عَنْهُ نَزِيفًا ^(٦)	أريد دَنًّا مُدَامٍ
على القلوب خَفِيفًا	وسَاقِيًّا مُسْتَهْشَأً
وَجِبَّةً وَنَصِيفًا ^(٧)	أريد مِنْكَ قَمِيصًا
أريد سَطْلًا وَلِيفًا	أريد مُشْطًا وَمُوسَى
أَكُمُ وَأَنْتَ مُضِيفًا	يا حَبْدَا أَنَا ضَيْفًا
وَلَمْ أُرِدْ أَنْ أَحِيفَا ^(٨)	رَضِيتُ مِنْكَ بِهَذَا

قال عيسى بن هشام : فَنُلتَهُ درهما ، وقلت له : قد آذنتُ بالدعوة ،
وَسُنْعُدْ وَنَسْتَعُدْ ، وَنَجْتَهِدْ وَنَجِدْ ، وَلَكْ عَلَيْنَا الْوَعْدُ مِنْ بَعْدِ . وَهَذَا الدَّرْهَمُ
تَذَكُّرَةٌ مَعَكَ ، فَخُذِ الْمُنْقُودَ ، وَانْتَظِرِ الْمَوْعُودَ ، فَأَخْذُهُ وَصَارَ إِلَى رَجُلٍ آخَرَ
ظَنَنْتُ أَنَّهُ يَلْقَاهُ بِمِثْلِ مَا لَقِيتُنِي ، فَقَالَ :

يا فاضلاً قد تبدَّيْ كَأَنَّهُ الْغُصْنُ قَدَاً

(١) الجريش من الملح : الخشن .

(٢) البقل : ما ينبت أوراقاً بلا ساق ، والقطيف : المقطوف .

(٣) الغريض : الطرى ، وهو الطازج .

(٤) الثقيف : الحامض .

(٥) السخل : ولد الضأن .

(٦) النزيف : السكران .

(٧) النصيف : الهامة .

(٨) أحيف : أظلم .

قد اشتَهَى اللحمَ ضِرْسِي فاجْلِدْهُ بِالْخُبْزِ جَلْدًا
وامْسُنْ عَلَى بَشِيءٍ واجْعَلْهُ للوقتِ نَقْدًا
أُطْلِقْ من اليدِ خَصْرًا^(١) واحْلُلْ من الكيسِ عقْدًا
واضْمُمْ يديكَ لأَجْلِي إلى جناحِكَ^(٢) عَمْدًا

قال عيسى بن هشام : فلما فتق سمعى منه هذا الكلام علمت أن وراءه فضلاً ، فتبعته ، حتى صار إلى أمّ مثواه^(٣) ، ووقفت منه بحيث لا يرانى وأراه ، وأماط السادة لُثْمَهُمْ ، فإذا زعيمهم أبو الفتح الإسكندري ، فنظرت إليه وقلت : ما هذه الحيلة ويحك ؟ ! فأنشأ يقول :

هذا الزمان مَشُومٌ^(٤) كما تراه غَشُومٌ
الحمقُ فيه مَلِيحٌ والعقلُ عيبٌ ولُومٌ
والمال طَيْفٌ ولكن حول اللئام يحومُ

وواضح أن المقامة تعبيرٌ عن هذه الطائفة الساسانية . ووصفٌ من بعض الوجوه لِحَيْلِهِمْ ، وفيها نرى أبا الفتح الإسكندري بطل المقامات ساسانيّ كبير ، وهو كذلك في أكثر المقامات أديب شجاع عظيم .

ولا يختلف باحث في أن هذا البطل من خيال بديع الزمان ، فلم يسبقه باسمه أحد ، وإنما هو الذى وضعه لمقاماته . فهو يجرى في أكثرها ، وإنما نقول أكثرها ، لأن هناك مقامات لم يرد ذكره فيها مثل المقامة الغيلانية والبغدادية . وهناك مقامات لا يظهر فيها أبو الفتح إلا في آخرها كالمقامة الإبليسية . ولكن الكثرة يتضح فيها منذ أول الأمر .

(١) أطلق من اليد خصراً : كناية عن إجابة الغير .

(٢) اضم يدك إلى جناحك : كناية عن إدناء اليد إلى موضع النقد .

(٣) أم مثواه : صاحبة منزله .

(٤) مشوم : مخوف ، وخفف .

وكما أن شخصية أبي الفتح بطل المقامات خيالية فكذلك شخصية الراوى عيسى بن هشام ، فهما جميعاً من صنع البديع واقتراحه . وهو يبدأ كل مقامة بهذه الصيغة الثابتة : « حدثني عيسى بن هشام ، قال » وهي تدل دلالة قاطعة على أنه حين حاول تأليف هذه المقامات كان في ذهنه أن يقلد طريقة الرواة بل بعبارة أدق كان في ذهنه أن يقلد طريقة ابن دريد في أحاديثه .

فابن دريد يبدأ أحاديثه دائماً بالسند ، وفي نص الحصرى السابق ما يشير إلى أن أحاديث ابن دريد من مخترعه ، ومعنى ذلك أن سندها أيضاً من مقترحه ، وكأن ابن الكلبي وغيره ممن يسند إليهم أحاديثه ليسوا أكثر من رمز إلى سُنَّة الرواة . أما في حقيقة الأمر فلا رواية ولا راو ، وإنما هي أحاديث من عمل ابن دريد ومن نسج خياله .

وقلده في ذلك البديع ، ولكنه لم يُسجَر أحاديثه أو مقاماته في سند مكذوب على شاكلة الأسانيد اللغوية والتاريخية المكذوبة ، إنما أجراها في سنده الخاص الذى أنشأه لنفسه إنشاءً ، واخترعه اختراعاً .

٣

الموضوع

موضوع المقامة عند بديع الزمان ليس واحداً ، حقناً أكثر المقامات موضوعها الكدبة والاستجداء ؛ إذ يظهر أبو الفتح الإسكندري في شكل أديب شحاذ يخلب الجماهير ببيانه العذب ، ويحتال بهذا البيان على استخراج الدراهم من جيوبهم .

وهو يتراءى بهذه الصورة في بلدان مختلفة ، ولعل هذا ما دفع بديع الزمان إلى أن يسمى المقامات بأسماء البلدان ، ومعظمها بلدان فارسية . وقد

يترك ذلك ويسمى المقامة باسم الحيوان الذي يصفه كالأسدية ، أو باسم الأكلة التي يُسلم بها أبو الفتح كالمَضِيرية نسبة إلى أكلة المَضِيرية . وأحياناً يسديها باسم الموضوع الذي يعرض له كالوعظية ؛ لأنها تدور حول وعظ ، والقريضية لأنها تدور حول القريض والشعر ، والإبليسية لأنها تتصل بإبليس ، والملوكية لأنها تتصل بملك هو خلف بن أحمد ، وهكذا .

ومعنى ذلك أن بديع الزمان لم يصطلح في تسمية مقاماته على سنة واحدة . ولعل هذا نفسه يثير إلى أن موضوعاتها تختلف ، فهي كما قلنا لا تجرى كلها في الكُدِيَّة ، بل تذهب مذاهب شتى ، تتحد فيها الغاية ، وهي رصف العبارات الأدبية المنمقة .

وكان الشكل القَصَصِيّ ليس هدفها ، فهي إنما تتخذة خيطاً ينسج حوله هذا الوشي من الأساليب المسجوعة . ومن هنا لم يعين البديع لنفسه فيها خطة مرسومة ، ومن ثَمَّ اختلفت الموضوعات .

ولعل أول ما يسترعى النظر من ذلك [مقاماته الست التي كتبها ليُشيد فيها بخلف بن أحمد صاحب سجستان فإنه لم يجعل موضوعها الكدية ، وإنما نحا بها نحو مدحه . ففي المقامة الملوكية مثلاً نجد عيسى بن هشام يلتقي بأبي الفتح ، فيسأله عن أكرم الملوك ، فيقول عيسى :

« فذكرت ملوك الشام ومَن بها من الكرام ، وملوك العراق ومَن بها من الأشراف ، وأمراء الأطراف ، وسقت الذكر ، إلى ملوك مصر ، فرويت ما رأيت ، وحدثته بعوارف ملوك اليمن ولطائف ملوك الطائف ، وختمت مدح الجملة ، بذكر سيف الدولة ، فأنشأ يقول :

يا ساريّاً بنجُوم الليل يمدحها ولو رأى الشمس لم يعرف لها خطراً
وواصفياً للسواقى هبك لم تَزُرْ بحر المحيط أَلَمْ تعرف له خَبَرًا ؟
مَن أَبْصَرَ الدُّرَّ لم يعدلْ به حجراً ومَن رَأَى خَلْقاً لم يذكر البَشَرًا
المقامة

زُرُهُ تَزُرُّ مُلْكًا يَعْطَى بِأَرْبَعَةٍ ^(١) لَمْ يَحْجُوْهَا أَحَدٌ ۖ وَانْظُرْ إِلَيْهِ تَسْرَى
 أَيَّامُهُ غُرُرًا وَوَجْهُهُ قَمَرًا ۖ وَعِزُّهُ قَدَرًا وَسَيِّبُهُ ^(٢) مَطَرًا
 مَا زِلْتُ أَمْدَحُ أَقْوَامًا أَظْنَهُمْ صَفْوَ الزَّمَانِ فَكَانُوا عِنْدَهُ كَدَرًا

قال عيسى بن هشام : فقلت : مَنْ هذا الملك الرحيم الكريم ؟ فقال :
 كيف يكون ، ما لم تَسْلُغْهُ الظنون ؟ وكيف أقول ، ما لم تقبله العقول ؟ ومتى
 كان ملك يأنف ^(٣) الأكارم ، إن بعثت بالدرهم ، والذهب ، أيسر
 ما يهسب ، والألف ، لا يعمه إلا الخسيف ^(٤) ، وهذا جبل الكُحْل قد
 أضرَّ به الميل ^(٥) ، فكيف لا يؤثر ذلك العطاء الجزيل ؟ وهل ^(٦) يجوز أن
 يكون ملك يرجع من البذل إلى سرفه ، ومن الخلق إلى شرفه ، ومن الدين
 إلى كسفه ، ومن الملك إلى كنفه ، ومن الأصل إلى سلسفه ، ومن النسب إلى
 خلسفه ؟ !

فليت شعري مَنْ هَذِي مَآثِرُهُ ۖ ماذا الذي ببلوغ النجس يستظير
 وهذا مدح ظاهر ، فالمقامة لم تتعرض لكُدْيَةٍ ، وإنما تعرضت لهذا المدح
 الذي يدل دلالة بَيِّنَةٍ على أن النثر أخذ يزاحم الشعر ، فالهمداني فيها يصوغ
 المدح نثرًا . وكنا نعرف حتى عصر البديع أن الشعر لسانُ المديح ، وأن
 المادحين لا يتكلمون بغيره . واليوم انقلبت الآية ، فقد أصبح المدح يقال
 نثرًا كما يقال شعرًا . وبذلك انعدمت الحواجز التي كانت تفصل بين عالمي

(١) يريد الأربعة التي سيدكرها في البيت التالي .

(٢) السيب : العطاء .

(٣) يأنفه : يضرب أنفه ، يريد أن ممدوحه يضرب الكرماء على أنوفهم حين يبعثون بدراهمهم أي أنه يفوقهم كرمًا .

(٤) الخلف : الفأس ، يريد أنه يتلف الألف ، أي أنه كريم جداً .

(٥) الميل : المرود يكتحل به ، يقول إن الميل على قلة ما يأخذ يضر بالجل فكيف بكرم

ممدوحه وما يؤخذ منه .

(٦) الاستفهام إنكارى أي أن كل ملك بهذه الصفات لا يستطيع أن يبلغ مبلغه .

النثر والشعر ، فالنثر يطرق موضوعات الشعر ، والشعر يطرق موضوعات النثر على نحو ما هو معروف في الشعر التعليمي .

وبجانب هذا الموضوع ، موضوع المديح ، نجد موضوعاً آخر ، بل موضوعات أخرى ، وهي ليست من موضوعات الشعر كالموضوع السابق، وإنما هي من موضوعات النثر ، غير أنها ليست كندية فهي لا تجرى مع الموضوع العام . فمن ذلك أننا نجد مقامات تتخذ النقد الأدبي موضوعاً لها ، مثل المقامة العراقية والشعرية والقريضية . فهذه المقامات الثلاث يعرض فيها بديع الزمان لأحكام أدبية تتصل بالشعر والشعراء ، وبجانبها مقامة تسمى الجاحظية ، وفيها نرى البديع يقول على لسان أبي الفتح وقد حضر مأدبة ، وعرض الحاضرون لفصاحة الجاحظ ولحسنه :

« يا قوم : لكل عمل رجال ، ولكل مقام مقال ، ولكل دار سكان ، ولكل زمان جاحظ ، ولو انتقدتم لبطل ما اعتقدتم . . . إن الجاحظ في أحد شِقَيْهِ البلاغة يَقْطِفُ^(١) ، وفي الآخر يقف ، والبالغ مَنْ لم يقصّر نظمه عن نثره ، ولم يُزِرْ كلامه بشعره ، فهل تروون للجاحظ شعراً رائعاً ؟ قلنا لا ، قال : فهلموا إلى كلامه ، فهو بعيد الإشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، منقادٌ لعُرْيَانِ الكلام يستعمله ، نَفْسُورٌ من مُعْتَصِصِهِ يُهْمَلُهُ ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟ »

وهذا حكم أدبي دقيق على الجاحظ يدل على أن البديع قرأه وفهمه ، وعرفه معرفة صحيحة ، وإن كنا لا نتفق معه فيه وفي تفاصيله ، فالجاحظ لا يلام بأنه لا يقول الشعر . أما أنه يستعمل عُرْيَانِ الكلام وينفر من الاستعارات والكلمات العويصة ، فذلك حقه . ولعل أدبه بهذه الخصائص نفسها يفوق أدب البديع ومعاصريه . ونحن لا نستطيع بحال أن نقبل من البديع هذه الاستهانة بالجاحظ على أساس أنه ليس عنده ألفاظ مصنوعة ولا كلمات غير

(١) يقطف : يسير ببطء ، يريد أنه ناثر لا شاعر .

مسموعة ، فليس هذا عنوان التفوق الأدبي ، إنما هذا أسلوب البديع ومعاصريه ، وبه كانوا يقيسون البلغاء والبلاغة .

ومن الموضوعات في مقامة البديع موضوع الوعظ الديني ، فقد كتب فيه مقامتين هما المقامة الأهوازية والمقامة الوعظية ، ويسترسل في الأخيرة على هذا النحو :

« أيها الناس ! إنكم لم تُشْرِكُوا سُدًى ، وإن مع اليوم غداً ، وإنكم واردوا هُوءَةً ^(١) ، فأعدوا لها ما استطعتم من قوَّة ، وإن بعد المعاش معاداً ، فأعدوا له زاداً ، ألا لا عُدْر ، فقد بُيِّنَتْ لكم المحجَّة ، وأُخِذَتْ عليكم الحُجَّة ، من السماء بالخبر ، ومن الأرض بالعبر ، ألا وإن الذي بدأ الخلقَ عليمًا ، يحيي العظام رميمًا ، ألا وإن الدنيا دارُ جَهَاز ، وقنطرة جَوَاز ، من عبرها سَلِم ، ومن عَمَرها ندم . »

والبديع في هذا الجانب الديني نراه ضد الملحدين ، بل نراه يأخذ جانب أهل السنة ويشنُّ حرباً شعواء على خصومهم من المعتزلة . ومقامته المارستانية تصور هذا الجانب فيه تصويراً دقيقاً ؛ إذ نرى أبا الفتح الإسكندري نازلاً في مارستان ، ويزوره عيسى بن هشام مع أبي داود العسكري المتكلم ، فسرعان ما يعرفه أبو الفتح ، ويورد على مسمعه نقداً شديداً للمعتزلة وآرائهم .

وإعل في هذا كله ما يشهد بأن البديع حَمَلْ مقامته كثيراً من الجوانب التعليمية ، وهناك مقامة تسمى المقامة العلمية ، وفيها نراه يصف لطالب العلم طريقه الصعب ، وما ينبغي أن يستعين به عليه حتى يحصل على مرامه منه ، فلا بد له من الدأب والحفظ والدرس والفهم والتحقيق والتعليق ، حتى يفتق سمعه ، وحتى يتغلغل العلم إلى صدره .

ويمكن أن نسلِّك في هذا الجانب التعليمي المقامة الأسدية التي جمع فيها كل ما استطاع من أوصاف للأسد ، والمقامة الحمدانية ، وهي تصف

منظراً حدث في حياة سيف الدولة المتوفى سنة ٣٥٦ هـ ، وفيها يعرض علينا أبو الفتح أوصافاً مختلفة للفرس ، وكأنه ينشد متناً لغويّاً فيه وفي شِيعاته . ونضع في هذا الاتجاه أيضاً المقامة الغيلانية التي يظهر فيها الشاعر الأموي ذو الرّمة وينشد بعض شعره .

والمقامتان الأخيرتان تلفتاننا إلى أن المقامات الهمدانية قد تعرض لصور من الحياة الماضية ، ومثلها المقامة الصيمرية التي تتحدث عن محمد بن إسحق الصيمري المتوفى سنة ٢٧٥ للهجرة .

ولكن ينبغي أن لا نفهم من ذلك أن البديع كان يعنى بالماضى أكثر مما يعنى بالحاضر ، فقد وصف في مقاماته كثيراً من وجوه الحياة في عصره على نحو ما نرى في المقامة البغدادية وهي تصور الحياة في بغداد لعصره . وقد أعطانا في المقامة النيسابورية صورة دقيقة لفساد القضاء والقضاة في زمنه ، إذ نراه يذكر على لسان عيسى بن هشام أنه صلى الجمعة بنيسابور ، فلما قضاها مرّ به شخص ، فسأل عنه من بجانبه ، إذ رآه يلبس قلنسوة القضاة ، فقال له :

« هذا سُوسٌ لا يقع إلا في صوف الأيتام ، وجَرَادٌ لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولصٌّ لا يَسْتَقْبُ إلا خزانة الأوقاف » ، وكردى لا يُغَيَّر إلا على الضعاف ، وذئبٌ لا يَفْتَرَسُ عبادَ الله إلا بين الركوع والسجود ، ومحاربٌ لا يَسْتَهَبُ مالَ الله إلا بين العهود والشهود . وقد لَبِسَ دَنِيَّةً (١) وخلع دينيَّته ، وسوّى طيلسانه (٢) ، وحرّف يده ولسانه ، وقصّر سبّاله (٣) ، وأطال حباله . . . وبَسَّضَ لحيته ، وسوّدَ صُحيفته ، وأظهر ورعه ، وسترَ طَمَعَه » .

(١) الدنية : قلنسوة القاضى .

(٢) الطيلسان : كساء يوضع على الرأس ويسبل على الكتفين .

(٣) السبال : الشارب .

وليس فوق هذا بيان لظلم قاض وطغيانه وفساد ضميره ، فهو ممن يأكلون أموال الناس بالباطل ، يأكل مال الوقف واليتيم ، ويمضغ حق الضعيف والفقير ، لا يخشى إلاً ولا ذمة .

وهي صورة سيئة للقضاء في عصره . وتتخلل المقامات صور مختلفة عن حياة الناس المعاصرين له وأطعمتهم وأكسيتهم ، وخمرهم ولهوهم وسلوكهم ونفاقهم . وكل ذلك شاهد ناطق بأن مقامات البديع تمثل حياة المجتمع لعصره خير تمثيل .

على أن هناك مقامة ينبغي أن نقف عندها ، لا لأنها تعبر عن العصر أو ما قبل العصر ، ولكن لأنها أوحى لبعض الأدباء بأعمال باهرة ، وهي المقامة الإبلية ، وهي تدور على لقاء عيسى بن هشام لإبليس في واد من وديان الجن ، إذ ضلّت منه إبل ، فخرج في طلبها ، وما زال يطلبها حتى حلّ في واد خضير ، به أنهار وأشجار وأزهار ، وشيخ جالس فسلم عليه ، وردّ السلام ، وأمره بالجلوس ، فامتل ، وسأله : هل تروى من أشعار العرب شيئاً ؟ فقال : نعم وأنشده لامرئ القيس وأبيد وطرفة ، فلم يطرب لشيء من ذلك ، وعرض عليه أن ينشده من شعره ، فأنشده قصيدة لجرير .

فعجب عيسى بن هشام من انتحاله قصيدة جرير ، وبعد حوار قصير بينهما قال له إبليس : « ما أحد من الشعراء إلا ومعه معين منا ، وأنا أملت على جرير هذه القصيدة ، وأنا الشيخ أبو مرة » وغاب بعد هذا الكلام ، ووجد عيسى بن هشام نفسه وحيداً .

ولاريب في أن هذه المقامة الطريفة هي التي أوحى لابن شهيد في الأندلس أن يكتب رحلته المشهورة في عالم ما وراء الطبيعة ، وهي الرحلة المعروفة باسم « التوايع والزوايع » ويقصد بها الجن والشياطين إذ تراءى له شيطان ، وقد أرّج عليه في شعر ينظمه ، فأجازه ، وتعارفا ، فطلب إليه ابن شهيد أن يلقي شياطين الشعراء والكتاب السابقين معه ، فحمله على جناحه ، ونزل به

وادی الجن ، حيث لقيهم . وكان كلما لقي شيطاناً لشاعر مشهور أنشده من شعر صاحبه ، ثم من شعره الخاص ، فيعجب به ، ويحيزه اعترافاً بمهارته الفنية وقدرته البلاغية . ولقي شياطين الكتاب كما لقي شياطين الشعراء وعرض عليهم بعض رسائله ، وخاصة رسالته في الحلواء . وهو يتأثر فيها المقامة المصيرية لبديع الزمان ، ولا نلبث أن نراه يلتقي بشيطانه المسمى زُبدة الحقب ، ويحاول أن يُجسّاريه في بعض أوصافه التي جاءت في المقامات . وما يزال به حتى يعلن له تفوقه وإحسانه ، ويحيزه على إبداعه وافتتانه .

وواضح ما بين العاملين من صلة شديدة ، فهما جميعاً يدوران على لقاء شياطين الشعراء وراء عالمنا في وادی الجن . ويصرح ابن شهيد بلقائه لشيطان بديع الزمان ، ويعرض علينا صاحبه مثلاً رفيعاً من أمثلة الفن يحتذى على مثاله . وكل ذلك يثبت إثباتاً قاطعاً أن ابن شهيد في رحلة « التوابع والزوابع » إنما عارض البديع في مقامته الإبلسية .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن الذي ألهم أبا العلاء « رسالة الغفران » هو ابن شهيد في رحلته المذكورة ، لأنها هي الأخرى رحلة فيما وراء الطبيعة ، إلا أنها ليست في واد من وديان الجن ، وإنما هي في الجنة وعلى الصراط ويوم البعث . ولكنها على كل حال رحلة فيما وراء المشاهد المحسوس .

ويزعم آخرون أن ابن شهيد هو الذي استوحى رسالة الغفران رحلته ، ولعل في هذا الرأي الذي قدمناه ما يبطل نزاع هؤلاء المتخاصمين ، فالمسألة تُرد إلى القرن الرابع وإلى بديع الزمان ، فهو الذي استغل أولاً فكرة شياطين الشعراء التي قرأها في كتب الأدب العربي ، واستخرج منها مقامته الإبلسية . ثم خلفه ابن شهيد وأبو العلاء في القرن الخامس ، فألّف كل منهما رحلة فيما وراء عالمنا ، واستمد ابن شهيد مباشرة من البديع ومقامته ، فلم يدخل إلا تغييرات قليلة ، وتعديلات طفيفة .

الأسلوب

أول ما يَلَفَت القارئُ في مقامة البديع أنها وضعت في شكل حوار قصصى ، وهو حوار يمتدُّ بين عيسى بن هشام الراوى وأبى الفتح الإسكندرى البطل ، أو الأديب المحتال الذى يعرف كيف يلعب بعقول الناس ، ويستخرج منهم الدراهم عن طريق خيالاته وفصاحته .

والحوار يأتى على الهامش ، فالقصد الأول في مقامة البديع إنما هو الإتيان بمجاميع من الألفاظ والأساليب التى تغلب السامعين وتخرق بروعتها حجاب قلوبهم . فليس للبديع غاية قصصية بالمعنى الدقيق ، وإنما غايته أن يصوغ ألفاظاً ، أو قل أنغاماً من الكلام ويصبغها بالألوان الفنية التى كانت معروفة في عصره .

ومن أجل ذلك اختار صيغة السجع لمقاماته ، وكانت هى الصيغة التى يعجب بها عصره ، أعجب بها عند ابن العميد في رسائله ، كما أعجب بها عند غيره من تلاميذه ، فكان لا بد للبديع كى ينال استحسان معاصريه من أن يعتمد اعتماداً على هذه الوسيلة ، ويستخدمها في كل ما ينمق من مقاماته ويوشى من أحاديثه .

وهو يُظهر براعة فائقة في استخدامها ، حقاً إنه لا يلتزمها دائماً ، ولكنه يحنح إليها غالباً ، فالأصل عنده أن يسجع ، ولا يترك السجع إلا نادراً . وكانت تسعفه في ذلك حافظة نادرة ، وبديهة حاضرة ، وذكاء حاد ، وإحساس دقيق باللغة ومترادفات وأبنيته واستعمالاتها المختلفة .

فها هى إلا أن يتوجه إلى الكلام ، حتى تنهال عليه الألفاظ من كل جهة ،

كأنها السيول تفيض من كل صوب . وكان يعرف كيف يُفيد من هذه السيول ، فهو يضع الكلمات مواضعها في دقة وبراعة منقطعة النظير .

ومن هنا كان سجعته في جملته خفيفاً رشيقيّاً ، فليس فيه تكلف ، وليس فيه صعوبة ولا جفاء فهو دائماً كأنما يستمد من فَيَضُّ لغوى لا ينفد . وتراه إزاء المعنى ، وكأنه الصائد الماهر الذى يحسن إلقاء شبابه على صيده ، فلا يخطئه ، بل يصيبه دائماً ، ويخيل إليك كأنه يجمع نفسه جمعاً إزاء الكلمات اللغوية ، فإذا هو قد أحصاها إحصاء ، وإذا هو يحىء بما يوافقه ويريده منها وكأنه يمسك بزمامه .

فليس هناك معنى يعسر على البديع التعبير عنه ، وليست هناك كلمات تختبئ منه وراء حواجز اللغة ومتشابهاتها ، بل الكلمات تقبل عليه من كل جانب ليختار منها ما يريد له هواد ، وما تريد له حاسته اللغوية الدقيقة .

وهذا كله يدل من جهة على محصول لغوى واسع ؛ كما يدل على ذوق بديع ، يعرف كيف يختار الكلمة المناسبة ، وكيف يضعها في مواضعها ، فلا نبوء ولا شذوذ ، بل دائماً دقة وضبط وإحكام في عذوبة وسلاسة وتناسق وانسجام .

وهو يسمح على ذلك بروح فكاهية بديعة تتخلل مقاماته ، فتجعلها أكثر قبولاً لدى النفوس ، ويظهر أن البديع كان ينطوى على مَرَحٍ في داخله ، فسكبه في مقاماته . وهو يتخذ صوراً مختلفة . وقد تمضى المقامة وكلها دُعابة وفكاهة . ونحن نسوق للقارئ مقاماته « المَضِيرية » نسبة إلى المَضِيرَة (وهى لحم يطبخ باللبن المضير أى الحامض) ليطلع منها على جملة خصائصه وما يطبع به أساليبه من مهارة . قال :

« حَدَّثَنَا عيسى بن هشام ، قال : كنت بالبصرة ومعى أبو الفتح الإسكندرى رجلُ الفصاحة يدعوها فتجيبه ، والبلاغة يأمرها فتطيعه ، وحضرنا معه دعوة بعض التجار ، فقدّمت إلينا مَضِيرَة ، تُثْنَى على الحضارة ،

وتُخرج في الغضارة^(١) وتؤذن بالسلامة ، وتَشْهَدُ لمعاوية — رحمه الله — بالإمامة^(٢) ، في قَصْصَةِ يَزَلُ^(٣) عنها الطَّرْفُ ، ويموج فيها الطَّرْفُ .
فلما أخذت من الخُوَان مكانها ، ومن القلوب أوطانها ، قام أبو الفتح الإسكندري يلعنها وصاحبها ويمقتها وآكلها ، وَيَشْلُبُهَا ويطبخها ، وطننَّاه يمزح فإذا الأمر بالضدِّ ، وإذا المزاج عَيْنُ الجِدِّ ، وتنحى عن الخُوَان ، وترك مساعدة الإخوان . ورفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون ، وتحلبت لها الأفواه ، وتلمَّظت لها الشفاه ، واتَّقدت لها الأكباد ، ومضى في إثرها الفؤاد ، ولكننا ساعدناه على هجرها ، وسألناه عن أمرها ، فقال : قصتي معها أطول من مصيبي فيها ، ولو حدثتكم بها لم آمن المَقْصُت ، وإضاعة الوقت ، قلنا هات ، قال :

دعاني بعض التجار إلى مَضِيرَةٍ ، وأنا ببغداد ، ولزمني ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرِّقَمِ^(٤) ، إلى أن أُجِبْتُهُ إليها ، وقمنا ، فجعل طول الطريق يُشْنِي على زوجته ، ويفدِّيها بمهجته ، ويصف حذقها في صنعتها ، وتأنقها في طَبْخِهَا ، ويقول : يا مولاي لو رأيتها ، والخيرُقة في وسطها ، وهي تدور في الدور ، من التَّنُورِ^(٥) إلى القدور^(٦) ، ومن القدور إلى التنور ، تَسْفُتُ بفيها النار ، وتدُقُّ بيديها الأبرار ، ولو رأيت الدخان وقد غبَّرَ^(٧) في ذلك الوجه الجميل ، وأثر في ذلك الخَدُّ الصَّقِيل ، لرأيت منظرًا تحار فيه العيون . وأنا أعشقها لأنها تعشقني ؛ ومن سعادة المرء أن يُرْزَقَ المساعدة من حَمِيلَتِهِ وأن يَسْعَدَ بظعينته^(٨) ، ولا سيما إذا كانت من طينته ، وهي ابنة عمي لحيا^(٩) ، طينتها طينتي ، ومدينتها مدينتي ، وعمومتها عمومتى ، وأرومتها^(١٠)

(١) الغضارة : القصعة الكبيرة .

(٢) يشير إلى ما يروى من أن معاوية كان نهماً أكلوا . (٣) يزل : ينزلق .

(٤) أصحاب الرقيم : أهل الكهف وقصتهم مشهورة ، وفيها كلهم لا يفارقهم .

(٥) التنور : ما يحبز فيه . (٦) القدور : جمع قدر ، وهو الإناء يطبخ فيه .

(٧) غبر : أثر . (٨) الظعينة : الحليلة ، وهي الزوجة .

(٩) ابن العم لحا : أقرب أبناء العم . (١٠) الأرومة : الأصل .

أرومتي ، لكنها أوسع مني خلُقًا ، وأحسن خلُقًا ، وصَدَّعَنِي بصفات زوجته ، حتى انتهينا إلى محلَّته ^(١) ، ثم قال :

يا مولاي ! ترى هذه المحلَّة ! هي أشرف محالٍّ بغداد ، يتنافس الأخيار في نزولها ، ويتغايروا ^(٢) الكبار في حلولها ، ثم لا يسكنها غير التجار ، وإنما المرء بالجار . وداري الواسطة ^(٣) من قلاذتها ، والنقطة من دائرتها ، كم تقدَّر يا مولاي أنفق على كل دار منها ؟ قلَّه تخمينًا ، إن لم تعرفه يقينًا ، قلت : الكثير ، فقال : ياسبحان الله ! ما أكبر هذا الغلط ! تقول الكثير فقط ، وتنفس الصَّعداء ، وقال : سبحان من يعلم الأشياء . وانتهينا إلى باب داره فقال : هذه داري كم تقدَّر يا مولاي أنفقت على هذه الطاقة ^(٤) ! أنفقت والله عليها فوق الطاقة ، ووراء الفاقة ^(٥) ، كيف ترى صنعتها وشكلها ؟ أرايت بالله مثلها ؟ انظر إلى دقائق الصَّنعة فيها ، وتأمَّل حُسْنَ تعريجها ، فكأنما خُطَّ بالبِرِّكار ^(٦) ، وانظر إلى حِدْق النجَّار ، في صنعة هذا الباب اتخذه من كم ^(٧) ، قلُّ : ومن أين أعلم ؟ هو ساج ^(٨) من قطعة واحدة لا مآروض ولا عَفَن ، إذا حرَّك أن ، وإذا نُقِر طن ، مَن اتخذه يا سيدى ؟ اتخذه أبو إسحق بن محمد البصرى وهو والله رجلٌ نظيف الأثواب ، بصير بصنعة الأبواب ، خفيف اليد في العمل ، لله دَرُّ ذلك الرجل ، بحياتي لا استعنت إلا به على مثله . وهذه الحلقة ^(٩) تراها اشتريتها في سوق ^(١٠) الطرائف من عمران الطرائفى بثلاثة دنانير مُعزَّية ^(١١) كم فيها يا سيدى من الشَّبه ^(١٢) ! فيها ستة أرتال ، وهي تدور بلولب في الباب بالله

(١) المحلَّة : الحى . (٢) يتغايرو الكبار : يفار بعضهم من بعض .

(٣) الواسطة : الجوهره الكبيرة في العقد . (٤) الطاقة : الشباك . (٥) يريد أنه أنفق عليها ما جر عليه الفقر والفاقة . (٦) البركار (البرجل) : آلة لرسم الدوائر والأقواس . (٧) يريد : من كم لوح أو قطعة . (٨) الساج : شجر جيد .

(٩) يريد حلقة الباب . (١٠) سوق الطرائف : سوق كانت ببغداد تباع فيها النفائس . (١١) معزَّية : كاملة ، وبذلك اشتهرت دنانير المعز بالله الفاطمى صاحب مصر ، إذ كانت

أثقل من غيرها في الوزن . (١٢) الشبه : النحاس .

دَوْرَهَا ، ثُمَّ انْتَقَرَهَا وَأَبْصَرَهَا ، وَبِحَبَاقِي عَلَيْكَ لَا اشْتَرَيْتَ الْحَلَّتَى إِلَّا مِنْهُ ،
فَلَيْسَ بِبَيْعٍ إِلَّا الْأَعْلَاقُ ^(١) . ثُمَّ قَرَعَ الْبَابَ وَدَخَلْنَا الدَّهْلِيَّزَ ، وَقَالَ : عَمَّرَكَ
اللَّهُ يَا دَارَ ، وَلَا خَيْرَ بَكَ يَا جِدَارَ ، فَمَا أَمْتَنَ حَيْطَانُكَ ، وَأَوْثَقَ بَنِيَانُكَ ،
وَأَقْوَى أَسَاسُكَ ! تَأَمَّلْ بِاللَّهِ مَعَارِجَهَا ^(٢) ، وَتَبَيَّنْ دَوَاطِلَهَا وَخَوَارِجَهَا ، وَسَاقِي
كَيْفَ حَصَلَتْهَا ، وَكَمْ مِنْ حِيلَةٍ احْتَلَتْهَا ، حَتَّى عَقَدْتَهَا ^(٣) ؟ كَانَ لِي جَارٌ
يُكْنَى أَبَا سُلَيْمَانَ يَسْكُنُ هَذِهِ الْمَحَلَّةَ وَلَهُ مِنَ الْمَالِ مَا لَا يَسْعَى الْخَزْنَ ، وَمِنْ
الصَّامِتِ ^(٤) مَا لَا يَحْصِرُهُ الْوَزْنُ ، مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَخَلَّفَ خَلْفًا أَتْلَفَهُ
بَيْنَ الْحَمْرِ وَالزَّمَرِ ، وَمَزَقَهُ بَيْنَ النَّرْدِ وَالْقَسَمَرِ ^(٥) ، وَأَشْفَقْتُ أَنْ يَسُوقَهُ قَائِدُ
الْإِضْطِرَارِ ، إِلَى بَيْعِ الدَّارِ فِي بَيْعِهَا فِي أَثْنَاءِ الضَّجَرِ ، أَوْ يَجْعَلَهَا عَرْضَةً لِلْخَطَرِ ،
ثُمَّ أَرَاهَا ، وَقَدْ فَاتَنِي شِرَاهَا ، فَأَنْقَطَعَ عَلَيْهَا حَسَرَاتِي ، إِلَى يَوْمِ الْمَمَاتِ ،
فَعَمِدْتُ إِلَى أَثْوَابٍ لَا تَنْضُ ^(٦) تَجَارَتِهَا فَحَمَلْتُهَا إِلَيْهِ ، وَعَرْضْتُهَا عَلَيْهِ ،
وَسَاوَمْتُهُ عَلَى أَنْ يَشْتَرِيَهَا نَسِيمَةً ^(٧) ، وَالْمُدْبِرُ يَحْسِبُ النَسِيمَةَ عَطِيَّةً ،
وَالْمُتَخَلِّفُ يَعْقِدُهَا هَدِيَّةً ، وَسَأَلْتُهُ وَثِيقَةً بِأَصْلِ الْمَالِ فَفَعَلَ وَعَقَدَهَا لِي ، ثُمَّ
تَغَافَلْتُ عَنْ اقْتِضَائِهِ ^(٨) حَتَّى كَادَتْ حَاشِيَةُ حَالِهِ تَرَقُّ فَأَتَيْتُهُ فَاقْتَضَيْتُهُ ،
وَاسْتَمَهَلَنِي فَأَنْظَرْتُهُ ^(٩) ، وَالتَّمَسُّ غَيْرُهَا مِنَ الثِّيَابِ فَأَحْضَرْتُهُ ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ يَجْعَلَ
دَارَهُ رَهِينَةً لَدَيَّ ، وَوَثِيقَةً فِي يَدَيَّ ، فَفَعَلَ ثُمَّ دَرَجَتْهُ ^(١٠) بِالْمَعَامَلَاتِ إِلَى بَيْعِهَا
حَتَّى حَصَلَتْ لِي بِجِدِّ صَاعِدٍ ^(١١) ، وَبَخْتٍ مُسَاعِدٍ ، وَقُوَّةٍ مُسَاعِدٍ ، وَرُبَّ
سَاعٍ لِقَاعِدٍ ، وَأَنَا بِحَمْدِ اللَّهِ مُجْدُودٌ ^(١٢) ، فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ مُحْدُودٌ ، وَحَسْبُكَ
يَا مُوَلَايَ أَنِّي كُنْتُ مِنْذُ لَيَالٍ نَائِمًا فِي الْبَيْتِ مَعَ مَنْ فِيهِ إِذْ قُرِعَ عَلَيْنَا الْبَابُ ،

-
- (١) الْأَعْلَاقُ : النِّفَاسُ . (٢) مَعَارِجُهَا : سَلَامُهَا . (٣) عَقَدْتُهَا : مَلَكَتُهَا
وَاقْتَنَيْتُهَا . (٤) الصَّامِتُ : الْمَالُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . (٥) النَّرْدُ : لَبَّةُ الطَّوَالَةِ ،
وَالْقَسَمَرُ : الْقَهَارُ . (٦) تَنْضُ : تَنْفَقُ . (٧) النَسِيمَةُ : الْبَيْعُ الْمُؤَجَّلُ .
(٨) اقْتِضَائِهِ : مَطَالِبَتُهُ بِالْأَدَيْنِ وَمَقَاضَاتِهِ . (٩) أَنْظَرْتُهُ : أَمَهَلْتُهُ .
(١٠) دَرَجَهُ : خَدَعَهُ بِالتَّدْرِيجِ . (١١) جَدُّ صَاعِدٍ : حَظُّ صَاعِدٍ إِلَى السَّمَاءِ .
(١٢) مُجْدُودٌ : مَحْظُوظٌ .

فقلت : من الطارق المُسْتَتَاب ^(١) ؟ فإذا امرأة معها عقدُ لآل ، في جلدته ^(٢) ماء ورقية آل ^(٣) ، تعرضه للبيع فأخذته منها إخذةً خلسةً ^(٤) ، واشترته بشمنٍ بخس ، وسيكون له نفع ظاهر ، وربحٌ وافر ، بعون الله تعالى ودولتك . وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جددى في التجارة ، والسعادة تُسَبِّط ^(٥) الماء من الحجارة ، الله أكبر لا ينبئك أصدق من نفسك ، ولا أقرب من أمسك ! اشتريت هذا الحصير في المناذاة ، وقد أخرج من دور آل ^(٦) الفرات ، وقت المصادرات ، وزمن الغارات ، وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجد ، والذهر حُبِّلَى ليس يُدْرَى ما يُلْد ، ثم اتفق أنى حضرت باب الطاق ^(٧) ، وهذا يُعْرَضُ في الأسواق ، فوزنت فيه كذا وكذا ديناراً . تأمل بالله دقته ولينه وصنعته ولونه فهو عظيم القدر ، لا يقع مثله إلا في الندرة ^(٨) . وإن كنت سمعت بأبى عمران الحصيرى فهو عمله وله ابنٌ يخلقه الآن في حانوته ، لا توجد أغلاق الحُصُر إلا عنده ، فبحياتى لا اشتريت الحُصُر إلا من دُكَّانِه ، فالمؤمن ناصحٌ لإخوانه ، لا سيما من تحرَّم ^(٩) بيعُوانِه . ونعود إلى حديث المَضيرة ، فقد جان وقت الظهيرة ، يا غلام ! الطَّسَّتْ والماء . فقلت : الله أكبر ربما قَرُبَ الفرج ، وسهل المخرج ، وتقدَّم الغلام ، فقال : ترى هذا الغلام ! إنه روى الأصل عراقى النَّشْء ، تقدَّم يا غلام واحسِر ^(١٠) عن رأسك ، وشحَّ عن ساقك ، وانض ^(١١) عن ذراعك ، وافتر عن أسنانك ، وأقبل وأدبر ، ففعل الغلام ذلك ، وقال التاجر : بالله من اشتراه ؟ اشتراه والله أبو العباس ، من النَّحَّاس .

(١) المنتاب : الذى يأتى مرة بعد مرة . (٢) يريد أن اللآلى تشبه الماء في صفاتها .

(٣) آل : السراب . (٤) خلس : اختلاس . (٥) تنبط : تخرج .

(٦) آل الفرات من أعيان بغداد ، تولى واحد منهم وزارة المقتدر في أوائل القرن الرابع

للهجرة ، ونكبه وصادر أمواله . وإلى ذلك يشير بديع الزمان .

(٧) باب الطاق : من أبواب بغداد . (٨) الندرة : الندرة . (٩) تحرَّم :

أصبح له حرمة . (١٠) احسر : اكشف . (١١) انض : انزع ثوبك عنه .

ضع الطَّسْت وهات الإبريق . فوضعه الغلام وأخذته التاجر وقلَّبه وأدار فيه النظر ثم نَقَرَه ، فقال ، انظر إلى هذا الشَّيْء كأنه جذوة اللهب ، أو قطعة من الذهب ، شَبَّهُ الشام ، وصنعة العراق ليس من خُلُقَان^(١) الأعلاق ، قد عرفت دور الملوك ودارها^(٢) ، تأمَّلْ حسنه ، وسلنى : متى اشتريته ؟ اشتريته والله عام المجاعة ، وادَّخرته لهذه الساعة . يا غلام ! الإبريق ! فقدَّمه ، وأخذته التاجر فقلَّبه ، ثم قال : وأنبويه منه^(٣) ، لا يصلح هذا الإبريق إلا لهذا الطست ، ولا يصلح هذا الطست إلا مع هذا الدَّسْت^(٤) ولا يحسن هذا الدَّسْت إلا في هذا البيت ، ولا يَجْمُلُ هذا البيت إلا مع هذا الضيف . أرسِل الماء يا غلام ، فقد حان وقت الطعام ، بالله ترى هذا الماء ما أصفاه ! أزرق كعين السنُّور^(٥) وصافٍ كقضيب البِلَّور ، استُقى من الفُرات ، واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان^(٦) الشمعة ، في صفاء الدمعة ، وليس الشأن في السَّقَاء^(٧) ، الشأن في الإناء ، لا يدلُّك على نظافة أسبابه ، أصدقُ من نظافة شرابه . وهذا المَسْدِيل سَكَنِي عن قصته . فهو نَسَجْ جُرْجَان ، وعملُ أَرَجَان^(٨) ، وقع إلى فاشتريته فاتخذت امرأتى بعضه سراويلًا^(٩) ، واتخذتُ بعضه منديلا ، دخل في سراويلها عشرون ذراعًا ، وانتزعتُ من يدها هذا القدر انتزاعًا ، وأسلمته إلى المَطْرَرِ حتى صنعه كما تراه وطرَّزه ثم رددته من السوق ، وخزنته في الصندوق ، وادَّخرته للظراف . من الأضياف ، لم تُدْلِه^(١٠) عربُ النعامه بأيديها ، ولا النساء بماقيها ، فلكل نفيسٍ يوم ،

(١) الخلقان : البال . (٢) دارها : دار فيها . (٣) أنبويه منه : يريد أن خرطومه الذى ينزل منه الماء منحوت منه ، فليس موصولاً به . وهذا كناية عن الخلق في صنعة .
 (٤) الدست : المجلس . (٥) السنور : الهر . (٦) لسان الشمعة : فتيلتها المشتعلة . (٧) يقول إن صفاء الماء لا يأتي من مهارة الساق ، وإنما من صفاء الإناء . يريد أن يبالغ في مدح إنائه . (٨) أرجان وجرجان : من بلاد إيران .
 (٩) السراويل : ما يلبس موضع الإزار ، ويشد في الوسط .
 (١٠) تذله : تمتهنه .

ولكل آلة قوم ، يا غلام ! الخُوَان ، فقد طال الزمان ، والقِصَاع ، فقد طال المِصَاع ^(١) ، والطعام ، فقد كثر الكلام . فأتى الغلام بالخوان ، وقلبه التاجر على المكان ، ونقره بالبنان ، وعجمه ^(٢) بالأسنان ، وقال : عَمَرَ الله بغداد فما أجود متاعها ، وأظرف صنائعها . تأمل بالله هذا الخوان ! وانظر إلى عَرْضِ مَتْنِهِ ، وخِفَّةِ وزنه ، وصلابة عوده وحسن شكله ، فقلت : هذا الشكل ، فتي الأكل ، فقال : الآن ؛ عَسْجَلُ يا غلام الطعام . لكنَّ الخُوَان قوَّامه منه .

قال أبو الفتح : فجاشت : نفسى ، وقلت : قد بقى الخَبِيزُ وآلاته ، والخَبِيزُ وصفاته والخِنْطَةُ من أين اشتريت أصلاً ، وكيف اكْتَسَرَى ^(٣) لها حَمَلًا ، وفي أيِّ رَحَى طَحَن ، وإِجَانَةً ^(٤) عَجَن ، وأَيَّ تَشْوِورٍ سَجَرَ ^(٥) وخبَّاز استأجر ، وبقى الخطب من أين احْتِطَبَ : ومتى جُلِبَ ، وكيف صُفِّفَ ، حتى جُفِّفَ ، وحبُّيس ، حتى يَبْسَيسَ ، وبقى الخَبَّازُ ووصفه ، والتلميذ ^(٦) ونَعْنَعَتُهُ ، والدقيق وملدحه ، والخميرُ وشرحه ، والمِلَاحُ ومِلَاحَتُهُ ، وبقيت السُّكَّرُجَاتُ ^(٧) من اتخذها ، وكيف انتقدتها ، ومن استعملها ، ومن عملها ، والخلُّ كيف انْتَقَبَى عَنِيبُهُ ، واشْتَرَى رُطَبُهُ ، وكيف صُهِّرِجَتَ ^(٨) مِعْصَرَتُهُ ، واسْتَخْلَصَ لُبُّهُ ، وكيف قَيَّرَ حَبِيَّهُ ^(٩) ، وكَم يساوى دَنَهُ . وبقى البقل كيف احتيل له حتى قُطِفَ ، وفي أى مَسَبَقَلَةٍ ^(١٠) رُصِفَ ، وكيف تُؤْتَقُ حتى نُظِّفَ . وبقيت المضيرة كيف اشتري لحمها . ووفى شَحْمُومُهَا ، ونُصِبَتْ قِيدُهَا ، وأُجْجَت نَارُهَا ، ودُقَّتْ أَبْزَارُهَا ،

-
- (١) المصاع : القتال : سُمي به ما هو فيه مع صاحبه من هذه الحرب . (٢) عجمه : اختبره . (٣) اكترى : استأجر . (٤) الإجانة : الإناء الذى يعمجن فيه . (٥) سجر التنور : ملأه وقوداً . (٦) التلميذ هنا : الصبي والتابع . (٧) السكرجات : صحاف صغار للكامخ . (٨) صهرجت : طليت بصيغ الصاروج . (٩) قير : طلى بالقار وهو القطران . (١٠) الحبة الكبيرة . (١٠) المبقلة : ما يوضع فيه البقل .

حق أجيد طَبَّخُهَا ، وَعَقَّدَ^(١) مَرَقُهَا . وهذا خَطْبٌ يَطْمُ^(٢) ، وأمر لا يَمُ ، فقامت . فقال : أين تريد ؟ فقلت : حاجةً أقضيها . فقال : يا مولاي تريد كَسِيفًا يُزْرَى بربيعِي^(٣) الأمير وخريفِي^(٤) الوزير ، قد جُصِّصَ^(٥) أعلاه ، وصُهِرَجَ أسفله ، وسُطِحَ سَقْفُهُ ، وفُرِشَتْ بالمرمر أرضه ، يَزِلُّ^(٦) عن حائطه الذَّرُّ فلا يعلق ، ويمشي على أرضه الذباب فيزَلَّتْ ، عليه بابٌ غَيْرَانُهُ^(٦) من خَلِيطِي ساج وعاج ، مزدوجين أحسن ازدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل فيه ، فقلت : كُلُّ أنت من هذا الجِرَاب ، لم يكن الكنيف في الحساب . وخرجت نحو الباب ، وأسرت في الذهاب ، وجعلت أعدو وهو يتبعني ويصيح : يا أبا الفتح المَضِيرَة ! وظن الصبيان أن المضيرةَ لَقِبُ لي ، فصاحوا صياحه ، فرميت أحدهم بحجر ، من فرط الضَّجَر ، فلقى رجلُ الحجر بعمامته ، فغاصَ في هامته . فأخذتُ من النعال بما قدَّم وحَدَّث ، ومن الصَّفْع بما طاب وخَبِث . وحُسِّرْتُ إلى الحبْس ، فأقمت عامين في ذلك النَّحْس ، فَتَذَرْتُ أن لا آكل مَضِيرَةً ما عشت . فهل أنا في ذا يا آل هَمْدَان ظالم .

قال عيسى بن هشام : فقبلنا عُدْرَه ، ونذرنا نَذْرَه ، وقلنا قديمًا جَنَّتِ المضيرة على الأحرار ، وقدَّمت الأراذل على الأخيار .

وهذه المقامة تعرض علينا البديع ، بكل ما أوتى من خفة ورشاقة لا من حيث انتخاب الألفاظ والعبارات حسب ، بل أيضًا من حيث الروح الفكاهي الذي طبع به مقاماته . فأصبحت حرية بأن تُروى في المجالس ، ويتلفقها الطلاب في الأقاليم الإسلامية المختلفة ؛ إذ يقرعون فيها ما يسرى عن نفوسهم ،

(١) عقد المرق : غلى حتى غلظ . (٢) يطم : يعظم ويتفاقم .

(٣) ربيع الأمير : ما يسكنه في الربيع . (٤) ما يسكنه الوزير في الخريف .

(٥) جصص : طلى بالجص وهو الجير .

(٦) غيرانه : جمع غار ، أراد بها الفواصل بين ألواح الباب .

ويرسم الضحك على شفاههم .

ولم تكن نفس البديع مطوية دائماً على الضحك والفكاهة ، فمن يتابعه في رسائله يجده أحياناً يفضي إلى ضروب من الشاؤم . وقد يكون مرجع الجانبين عنده حدة في حسه جعلته مرهف الشعور دقيقة . وهي حدة كان يرافقها ذكاء شديد وبديهة حاضرة ، فأعده ذلك ليُطْرَف قُرْأه بدعاباته وفكاهاته .

ويرى القارئ بجانب ذلك براعة البديع في استخدام السجع ، فالكلمات تتشابك بأسلاكه ، وكان صائغاً ماهراً يُحَسِّن ضمَّ جواهرها بعضها إلى بعض وتكوين عقود منها تأخذ بالأسماع والأبصار . ولا ريب في أن ذلك موهبة يختصُّ بها ، أو قل إنه فنٌّ لم يَرَقْ إليه إلا بعد ثقافة واسعة باللغة ، وتدريب شاق على صناعة أساليبها بحيث وقف وقوفاً دقيقاً على خصائصها الصوتية .

فليس كل سجع يعجبنا ، بل السجع منه الثقيل ومنه الخفيف الذى يرقُّ حتى لكأنه يَشْفِ عن المعنى الذى يضطرب في عقل صاحبه وقلبه . وكان بديع الزمان يعرف كيف يصوغ لفظه وكيف يعرضه ، وكيف يوقعه ، وكيف يُحدث فيه من التدرجات الصوتية ما يجعله يدخل على الأذن بدون استئذان كما يقولون .

وواضح أنه يستعين على ذلك بانتخاب ألفاظه ، وتقصير سجعاتها ، وكأنه كان يعرف أن تطويل السجعات من شأنه أن يطيل المسافة الزمنية للأصوات ، فلا يعطيها الرشاقة التى نحسها عنده .

سجعه إذن قصير ، قد أحكم قوالبه وضبط أنغامه ، ولم يكن يكتفى بذلك ، بل كان يضيف إليه تلوينات البديع المعروفة من جناس وغير جناس . واهتمَّ خاصة بالتصوير فنسج كثيراً من الأخيلة في أساليبه .

ولعل القارئ لاحظ أن هذه المقامة تخلو من الشعر . وهذه ليست عادته المقامة

المتبعة ، فهو يضمّن مقاماته كثيرًا من الشعر ، كما يضمّنها كثيرًا من الأمثال وآى القرآن الكريم .

ومر بنا آنفًا أنه عاب الجاحظ في مقامته الجاحظية بأنه « ينفر من معتاص الكلام وغريبه » وأنه « لا يستعمل المهمل غير المسموع » ، وقلنا إن هذا ليس عيبًا في الكاتب ، بل لو أن الجاحظ كان من ذوق ناقله أو بعبارة أخرى كان من ذوق بديع الزمان لكان ذلك هو العيب فيه والنقص في بلاغته .

ومن يرجع إلى مقامة البديع يلاحظ فيها كثيرًا من اللفظ الغريب ، يحشو به أساليبه كقوله في المقامة القرّدية على لسان عيسى بن هشام : « بينا أنا بمدينة السلام ، قافلا من البلد الحرام : أميسُ ميسِرَ الرّجُلَة ، على شاطئ الدّجلة » فقد استخلم كلمة أميس بمعنى أتبختر ، وليس هذا ما نريد أن نقف عنده ، إنما نقف عند كلمة الرّجُلَة فهي جمع رجل ، وهو جمع شاذ ، لم تكن هناك ضرورة لاستخدامه سوى أنه يقصد إلى ذلك قصداً . ومثل هذا قوله في المقامة الموصلية : « فأخذَه الجُفُ ، وملكتَه الأكف » والجُفُ هنا : الجمهور . ومن ذلك قوله في المقامة المارستانية : « الإكراه مرة بالمِرّة ، ومرة بالدّرّة » والمِرّة هنا : العقل .

ولعل المقامة الحمدانية أكثر المقامات ألفاظاً مهملة وحوشية غير مسموعة ، فقد عُنِيَّ فيها بوصف الفرس ، وعرض فيها كل محصوله اللغوي في هذا الوصف وكأنه يؤلف متنًا في غريب الفرس لا مقامة أدبية .

ولا نرتاب في أن هذا عنده أثر من آثار ابن دريد في أحاديثه التي أشرنا إليها والتي يحتفظ بها كتاب الأملی ، فهي كلها تمتلئ بأوابد اللغة وشواردها المهملة . ولعل في هذا ما يدل على أنه كان يستحضر في ذهنه دائماً صورة الأحاديث المذكورة لشيوعها بين المتعلمين في عصره .

والحق أن مقامته كلها إنما أراد بها إلى غاية تعليمية ، ولذلك حشد فيها هذه الألفاظ الغريبة ، ومع ذلك فلم يكثر منها ؛ إذ كان يأتي بها بين الحين

والحين ، وكان ما يطبع به أساليبه من خفة ومرونة يغطي على مثل هذه الأعشاب ،
فلا يجعلها تظهر للعين ولا للأذن تمامًا .

ولم تكن خفته ومرونته كل ما يغطى به هذا العيب ، بل كان يغطيه أيضاً
بضرب من الفكاهة مسح به على جوانب كثيرة من المقامة عنده . وكانت تسعفه
في ذلك بديهة حاضرة ونشاط ذهني متقد ،

مقامة الحريري

١

الحريري

هو أبو محمد القاسم بن عليّ الحريري ، ولد لأسرة عربية سنة ٤٤٦ للهجرة بضاحية من ضواحي البصرة ، تسمى المَشَّان ، كثيرة التمر والرُّطَب والفاكهة .^١ وبها كانت ملاعب صباه ومسارحه . ولما شبَّ تحوّل عنها إلى البصرة ، ونزل بحيّ فيها يسمّى حَيّ بني حَرَام ، وأكبَّ على الدراسات الدينية والعلوم اللغوية والنحوية ، وتخرّج في ذلك كله حاذقاً به ، بارعاً غاية البراعة .

وكان فيه ذكاء ولسان وفصاحة وبلاغة ، فجذب إليه الأنظار ، وطَمَسَتْ نفسه إلى وظائف الدولة ، وليس تحت أيدينا أخبار كثيرة تفسّر تقلبه في هذه الوظائف . وتلك عادة القدماء في تراجعهم الأدباء فقلما أعطونا تفاصيل حياتهم .

ونحن نرى طائفة منهم تذهب إلى أن والي البصرة عُنِي به ، وهو الذي دفعه إلى صنع مقاماته ، وتذهب طائفة ثانية إلى أن الذي عُنِي به أنوشروان ابن خالد وزير الخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) وتزعم طائفة ثالثة أن الذي عُنِي به وزير آخر لنفس الخليفة يسمى ابن صدقة .

وكلّ فُلُك إنما هو تفسير لما جاء في مقدمته للمقامات من قوله : « فأشار من إشارته حُكْم ، وطاعته غُشْم ، إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تِلْوَ البديع » ، فقالوا إنه يشير إلى أحد الثلاثة السابقين ، واختلفوا فيهم .

غير أن من يرجع إلى تاريخ تأليف الحريري لمقاماته يراه قد أتمها سنة ٥٠٤ للهجرة ، ومعنى ذلك أن ما يقال من صلة ابن صدقة وأنشروان بتأليفها غير صحيح ، فأنشروان إنما ولي وزارة المسترشد بعد وفاة الحريري ، أما ابن صدقة فوليها وهو حتى سنة ٥١٢ ولكن بعد تأليفه لمقاماته بسنوات ثمان .

من أجل ذلك كنا نذهب إلى ما رواه الشَّريشي ، شارح مقاماته الكبير ، في تعليقه على العبارة السابقة إذ روى عن بعض أساتذته أن الذي أشار إليه الحريري في مقدمته هو الخليفة المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) وكان له حظ من الأدب وعناية بأهل العلم ، ويقال إنه أثبت في الديوان منهم أسماء ألف وخمسمائة شخص ، وأجرى عليهم الأموال والأرزاق .

فقصده الحريري ، وما زال يبعثه على صنع المقامات ، حتى أتمها ورفعها إليه ، فبلغ عنده أسنى المراتب ، ويظهر أنه ظل بالقرب منه في بغداد حتى توفى ، وخلفه المسترشد ، فاتصل بكبار رجال الدولة لعهد ، ومن هنا تأتى صلته بابن صدقة وزيره . وربما اتصل بأنشروان حينئذ كما اتصل بغيره من البارزين وقدّم لهم نسخاً من مقاماته ، فأشكل ذلك على من تحدثوا عن حياته وأخباره . وأكبر الظن أنه زهد في بغداد بعد وفاة سيده المستظهر ، فرجع إلى بلده ، وعُين صاحب الخبر بها ، وهي وظيفة تشبه وظيفة « مصلحة الاستعلامات » في عصرنا . واكتفى بهذه الوظيفة ، وذهب يُعَنِّي بمقاماته ومحاضراته ، فكانت له حلقة بمسجد حَيّه الذي كان ينزل فيه هناك . وكان أحياناً يترك البصرة ويذهب إلى المشان ، فيتبعه الطلاب .

ويقول الرواة إنه كان بخيلاً قبيحاً دميم الحلقة والهيئة مُبْتَلًى بِسِنْتَفٍ لحيته ، ويزعمون أن رجلاً طلبه ، ليقراً عليه مقاماته ، وسأل عن مسجده الذي يقرؤها فيه ، فدله الناس عليه ، فلما رآه بُهِتَ ، وقال في نفسه : لعله ليس هو هذا ، فرجع ، ثم قال في نفسه : لعله هو ، ثم استبعد أن يكون الحريري هذا الشخص الدميم الذى تفتحه العيون . وكل ذلك وهو يلحظه .

وهمَّ الرجل بالجلوس بين يديه ، فبادره بقوله : ارحل فأننا من تطلب أكبر من قرد محنك . ويزعم الرواة أيضاً أن رجلاً آخر حدث منه ذلك والحريري يراقبه ، فلما التمس منه أن يمل عليه شيئاً من مقاماته قال له : اكتب :
 ما أنت أول سارٍ غرَّه القمَّـرُ وزائرٍ أعجبتَه خضرة الدُّ من
 فاختَرُ لنفسك غيري إنني رجلٌ مثلُ المبيدِ فاسمع بي ولا تترني
 فمخجل الرجل منه ، وانصرف .

ومهما يكن فقد دوَّتْ شهرته في العالم الإسلامي ، وهو لا يزال حياً ، ويقال إنه أعطى إجازة لسبعمئة طالب أن يرووا مقاماته عنه في الناس . وهو عدد ضخـم يدل على مبلغ عناية معاصريه بعمله ، ومدى ما تمتع به من مكانة أدبية مرموقة في عصره .

وخلَّف الحريريُّ بجانب المقامات ديواناً من الشعر ومجموعة من الرسائل كما خلَّف كتباً في النحو واللغة ، من أشهرها كتاب « درة الغواص في أوهام الخواص » وهو مطبوع ، وفيه يتعرَّض لأخطاء الأدباء وأغلاطهم في استعمال الألفاظ والأساليب ، وسرى في مقاماته ما يدل دلالة بينة على أنه كان واسع المعرفة بالمواد اللغوية .

وما زال يدبغ هذه الأعمال من جهة ، وقائماً على وظيفة « صاحب الخبر » من جهة ثانية ، حتى توفي سنة ٥١٦ للهجرة . ولنا ندرى أحـجَّ أم لم يحج ؟ ويغلب على ظننا أنه أدَّى فريضة ربه ، ففي مقاماته نزعة دينية وخلقية تدل على أنه كان حقيقياً بدينه ، مرضياً في سلوكه وخلقه .

وكان دائماً موسعاً عليه في الرزق ، ويقول الرواة إنه كان له ضياع واسعة في المشايخ ، ولعله من أجل ذلك كان كثير النزول بها والإقامة فيها . وعلى نحو ما كان سعيداً في نفسه كان سعيداً بأبنائه الثلاثة ، وهم : عبید الله وأبو القاسم عبد الله وأبو العباس محمد . أما أولهم فكان قاضى البصرة ، وأما الثانى فكان موظفاً في ديوان بغداد . وأما الثالث فورث وظيفة أبيه ، وزار

العماد الأصفهاني البصرة سنة ٥٥٦ للهجرة ، ورأى أبناءه لا يزالون يقومون على الوظيفة نفسها . وكان الطلاب بعد وفاة الحريري يقصدون أبناء الثلاثة المذكورين ، ويأخذون عنهم مقامات أبيهم ، وكانوا يشرحون لهم صعوباتها اللغوية . واشتهر من بينهم في ذلك محمد ، فهو مبدأ السلسلة الطويلة من سراحها الذين نهضوا بتفسيرها وحل مشكلاتها ، من مثل الشرشي وغيره .

٢

تأليف الحريري لمقامته

يختلف الرواة في المكان الذي ألّف فيه الحريري مقامته ، فن قائل إنه ألفها ببغداد ، ومن قائل إنه ألفها بالبصرة ، ثم أصدع إلى بغداد ، وعرضها على الأدباء هناك ، وكانت أربعين مقامة ، فاستحسنوها وتداولوها ، واتهمه بعض حسدته بأنها ليست من عمله ، وقالوا له : إن كنت صادقاً في أنها من عملك ، فلتصنع مقامة جديدة ، تثبت حجتك وصحة قولك .

وتزعم القصة أن الحريري حاول ذلك أربعين يوماً ، فلم يفتح الله عليه بشيء ، فعاد إلى البصرة كئيباً أسيفاً ، والناس يتحدثون عنه ، ويقعون فيه ، وغاب بها حقبة من الزمن ، ثم رجع ، وقد صنع عشر مقامات جديدة ، فحينئذ سلّموا له واعترفوا بفضله .

وفي رأينا أن هذا كله قصص " لا صلة له بالواقع ، لسبب بسيط ، وهو أن نظام تأليف المقامات عند الحريري يدل — كما سنرى بعد قليل — أنه ألفها جملة واحدة ، ولم يقع في ذهنه أن يؤلفها أربعين مقامة ، ثم عاد فألحق بها عشرًا ، بل الذي حاوله منذ أول الأمر أن يجعلها خمسين معارضة لمقامات بديع الزمان الحمسين .

ونظن ظنّاً أنه ألفها في بغداد حين أظلمت عناية المستظهر كما قدمنا ، وقد اختار لها بطلا هو أبو زيد السَّروجيّ وراويّة هو الحارث بن همام . واتفق الرواة على أن الحارث شخصية خيالية ، أما أبو زيد فقالوا إنه شخصية حقيقية ، ونسبوا إلى الحريريّ أنه قال :

« كان أبو زيد السَّروجيّ شيخاً شحاذاً بليغاً ومُكدياً فصيحاً ، وردّ علينا البصرة ، فوقف يوماً في مسجد بني حرّام فسَلَّم ، ثم سأل الناس ، وكان بعض الولاة حاضراً ، والمسجد غاصّ بالفضلاء فأعجبهم فصاحته وحسن صياغته كلامه وملاحظته . وذكرَ أسْر الروم ولده كما ذكرناه في المقامة الحرامية وهي الثامنة والأربعون (بين المقامات الخمسين) . واجتمع عندي عشية ذلك اليوم جماعة من فضلاء البصرة وعلمائها ، فحكيتُ لهم ما شاهدت من ذلك السائل ، وسمعت من لطافة عبارته في تحصيل مراده ، وظرافة إشارته في تسهيل لإبراده ، فحكى كل واحد من جلسائه أنه شاهد من هذا السائل في مسجده مثل ما شاهدت ، وأنه سمع منه في معنى آخر فصلاً أحسن مما سمعت . وكان يُغيّر في كل مسجد زيّه وشكله ، ويظهر في فنون الحيلة فضله ، فتعجبوا من جريانه في ميدانه ، وتصرّفه في تلونه وإحسانه ، فأنشأت المقامة الحرامية ، ثم بنيت عليها سائر المقامات ، وكانت أول شيء صنعته » .

وتأخذ هذه الرواية أو يأخذ هذا الخبر صوراً أخرى مختلفة كلها تحاول أن تثبت أن أبا زيد شخص حقيقي . ويزعم بعض الرواة أنه كان يسمى المطهر ابن سلال ، وأنه كان نحويّاً بليغاً . ولا نلبث أن نجد الكتب الخاصة بتراجم النحاة ترجم للمطهر ، وتقول إنه صاحب أبي القاسم الحريريّ الذي أنشأ المقامات على لسانه ، وإنه كان فيه أدب وله معرفة باللغة والنحو ، وإنه قرأ على الحريريّ وتخرّج به ، وروى عنه أرجوزته « مُلّحة الإعراب » وأنه توفي ببغداد حول سنة ٥٤٠ للهجرة .

وإذن فنحن إزاء مسألة من مسائل الدَّور ، فالحريريّ روى المقامات عن

أبي زيد ، وأبو زيد كروى عنه بعض كتبه ، فهو أستاذ الحريريّ من طرف ،
والحريريّ أستاذه من طرف آخر ! وقد يكون المظهر شخصية حقيقية وأنه
أحد تلامذة الحريريّ كما تقول كتب النحاة ، أما أنه أبو زيد السروجيّ فهذا
هو الوهم الذي وقعوا فيه .

وليس هذا كل ما أخطئوه ، فقد أخطئوا أيضاً حين ظنوا أن أبا زيد
شخص حقيقي ، وبالغوا فأضافوا ذلك إلى الحريريّ . وهو برّاءٌ مما يقولون ،
إذ ليس أبو زيد عنده إلا كأبي الفتح عند البديع ، فهو من وهمه وعمل مخيلته ،
ابتدعه ابتداءً ليدير عليه مقاماته .

والخبر السابق الذي روه عن الحريريّ ليس إلا تلفيقاً استمدوه من المقامة
الحرامية ، وفيها نجد الحريريّ يعرض علينا أبا زيد شيخاً يستجدي الناس
ببلاغته ، وقد ورد على البصرة ، ووقف في مسجد بني حرّام وشكا حاله ،
وألقي قصيدة بليغة في الحاضرين ، يقول فيها :

أنا من ساكني سرور	ج ذوى الدين والهدى
كنتُ ذا ثروة بها	ومُطاعاً مسوداً
مربعي مألّف الضيو	ف ومالى لهم سدى
ويرانى المؤمنو	ن ملاذاً ومقصدا
ففضي الله أن يُغني	ر ما كان عوداً
بؤاً الروم أرضنا	بعد ضغن تولدنا
فتطوحتُ في البلا	د طريداً مُشرداً
أجندى الناس بعدما	كنتُ من قبل مُجندى

ثم يقص على الناس أن ابنته سُبَيْب ، ثم يطلب إليهم العون ، فكلُّ يبادر
إلى إعطائه . وهي مغامرة كبقية مغامرات أبي زيد في المقامات ، ولكن الرواة
من ذوى الخيال المحدود ظنوا ذلك حقيقة ، ولفّقوا الخبر السابق .

وإن من يقرأ مقامات الحريريّ كلها ويتعقبه فيها يعرف أنه ألفها جميعاً

عملاً واحداً . وحققاً لا يبدو الربط واضحاً بين مقامة وتاليتها ، فقد كانت وجهة الحريري كوجهة بديع الزمان ، ونقص العناية باللفظ لا بالمعنى ، فكلاهما لم يكن يعنيه من بطله ومغامراته سوى عرض صور من الأساليب البليغة .

غير أننا إذا فحصنا مقامات الحريري وجدناه يرتبها ويرقمها ، فذلك المقامة الأولى ، وتلك المقامة الخمسون وكل مقامة بينهما تأخذ رقمها الخاص . وهذا معناه البناء المحكم ذو الحلقات . ونراه في الحلقة الأولى أو المقامة الأولى ، وهي المقامة الصنعانية ، يقوم بالتعريف بين الحارث بن همام وأبي زيد ، فالحارث قد اغترب إلى صنعاء وهناك رأى شخصاً يعظ في حلقة ، وهو ناهل ، عليه ثياب السفر ، قد أوتى حظاً من البلاغة ، فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرقع الأسماع بزواجر وعظه ، فأعجب به ، وحاول التعرف عليه ، فتبعه متواريماً عنه ، حتى دخل متغارة ، وهناك رآه مع تلميذ له ، فسأله عنه ، فقال : « هذا أبو زيد السروجي » ، سراج الغرباء ، وتاج الأدباء .

وعلى هذا النحو يعرف الحريري راويته ببطله في أول مقاماته ، ثم ينتقل به أدبياً مستجدياً في المقامات التالية ، لا يلم ببلدة حتى يتركها إلى أخرى ، وكلها من بلاد العالم الإسلامي ، وهي بلاد متباعدة . وفي كل بلدة يقوم البطل بحيلة على من حوله من الناس أو الحكام والقضاة ، وفي كل مرة يعرفه الحارث بعينه ، ويكشف أمره وسره .

ويطرفنا الحريري دائماً بالصورة التي يعمى بها حقيقة أديبه الشخاذاً ، فهو دائماً يظهره في قالب جديد تارة في هيئة مزرية ، وتارة في هيئة حسنة ورؤاء . وتارة يكون وحده ، وتارة مع ابنه أو تابعه أو زوجته . وكثيراً ما نراه يحتال على الولاة والقضاة بدعاوى مزيفة على بعض أسرته منتقلاً من صيد إلى صيد ، حاملاً لجرابه ، ومنكراً لشخصه . وقد يلبس لبس الرهبان أو لبس النسوان ، وأكثر ما يكون في ثياب خلقة وأسما . وما يزال يمد مكايده مكره وأحاييل خستله .

وكل مقامة من الأولى إلى الثامنة والأربعين هي شَرَك صغير من أشراك
أبي زيد يقصه الحارث ويروى ما انزل على لسانه فيه من أفانين كلامه . ونراه
يعرضه علينا في المقامة التاسعة والأربعين ، وهي المقامة الساسانية وقد بلغ من
الكِبَر عِتِيًّا ، فأحضر ابنه ، وأوصاه أن يقوم على حرفة الكُدِيَّة من بعده ،
ومما قال له :

« يا بُنَيَّ إنه قد دَنَّا ارتحالي من الفناء ^(١) ، واكتحالي بِمِرْوَدِ الفَسَاء ،
وأنت بحمد الله وليُّ عهدي ، وكَبَشُ الكَسْبِيَّة الساسانية من بعدى ، ومثلك
لا تَقْرَعُ له العصا ^(٢) ، ولا يُنْبَه بِطَرَقِ الحَصَا ، ولكن قد نُدِب ^(٣) إلى
الإذكار ، وجُعِلَ ضيقاً للأفكار . . . فاحفظ وصيَّتِي ، وجانبْ معصيتِي ،
واحدُ مثالي ، وافقَه أمثالي ، فإنك إن استرشدت بنصحي ، واستصبحت
بصُبحي ، أَمْرَعُ خانك ^(٤) ، وارتفع دخانك . . يا بُنَيَّ إني جَرَبْتُ حقائق
الأمر ، وبَلَّوْتُ تصاريِف الدهور ، فرأيتُ المرءَ بنشَبِه لا بنسَبِه ، والفحص
عن مكسبه لا عن حسبه . وكنت سمعت أن المعاش إمارة وتجارة وزراعة
وصناعة ، فمارستُ هذه الأربع ، لأنظر أيها أوفق وأُنفع ، فما أحمَدُ منها
معيشة ، ولا استرغَدْتُ فيها عيشة » .

واستمر يتحدث عن هذه الأوجه الأربعة للمعاش ، فقال عن الإمارة
إنها كأضغاث الأحلام لا تلبث أن تزول عن صاحبها مع مرارة الفطام ، أما
التجارة فَعَرُضَةٌ للمخاطر وما أشبهها بالطيور الطيَّارات . وأما الزراعة فذلَّةٌ
ومُسَهْكَةٌ ، وقيد عائقة ، وأما الصناعة فكثيراً ما تكسُد ولا تنفُت ، وإذن

(١) الفناء : ردهة المنزل .

(٢) في المثل : لا يقرع له العصا ، ولا يقلقل له الحصى ، كناية عن حنكته وتجربته .

(٣) ندب إلى : استحسن .

(٤) الخان : الفندق ، وأمرع خانك : أوى بيتك . وهي كناية عن يسار الحال ، ومثل هذه

العبارة : ارتفع دخانك : أى كثر خيرك .

فليس إلا حرفة الكُدَيْة ، فهى المتجر الذى لا يكسد ولا يبور ، والمصباح الدائم النور . اثم أخذ أبو زيد يَسْرُدُ لابنه كيف يقطف ثمارها ويعيش عن طريقها ، عارضاً لفنونها وأحابيل كيدها وشباك مكرها .

وواضح أن الحريري يَعِدُّنا بهذه المقامة الإشراف على نهاية عمله وخاتمة تأليفه ، فقد تنقل ببطله فى البلدان الإسلامية المختلفة ، حتى أشرف به على الأيام الأخيرة من عمره ، فجعله يودع حرفته ، ويحضر ابنه ليتأق به وصيته ، ويلقى له فيها بخبرته وتجربته .

ونقرأ فى المقامة الخمسين فإذا الحريري يعرض علينا أبا زيد ، وهو يتوب إلى الله من صنمته ، ويندم على ما تقلم من ذنوبه فيها ، فهو الذى يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ، وينشد :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ ذُنُوبٍ	أَفْرَطْتُ فِيهِنَّ وَاعْتَدْتُ
كَمْ خَضَعْتُ بِحَجَرِ الضَّلَالِ جَبْهَلًا	وَرُحْتُ فِي الْغَيِّ وَاعْتَدْتُ
وَكَمْ تَنَاهَيْتُ فِي التَّخَطُّطِ	إِلَى الْخَطَايَا وَمَا انْتَهَيْتُ
فَلَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ هَذَا	نِسِيًّا وَلَمْ أَجْنِ مَا جَنَيْتُ
يَا رَبِّ عَفْوًا فَأَنْتَ أَهْلٌ	لِلْعَفْوِ عَنِّي وَإِنْ عَصَيْتُ

ويعلن هذه التوبة الصادقة إلى صديقه الحارث بن هنام ، ويغيب عنه ، فلا يعود يراه ، ولا يزال يتنسم أخباره ، حتى يعرف أنه رجع إلى بلده سروج بعد أن فارقها الروم ، ولبس الصوف وأمَّ الصوف ، وصار بها الزاهد الموصوف ؛ وبذلك لم يعد ذا المقامات ، فقد أصبح ذا الكرامات . ويرحل إليه ، فيجده قد انتصب فى محرابه ، وأقبل على ذكر ربه وتسبيحه . وسلم عليه ؛ فحيَّاه دون أن يذكر شيئاً من قديمه ، فقد مضى فى قنوت وخشوع وسجود وركوع . وصحبه إلى بيته وأسهمه فى طعامه ، وهو طعام زاهد فقير . حتى إذا أضاعت تباشير الصباح أقبل على صلاته ومناجاة ربه ، حتى ليبيكى ؛ ويبكى معه الحارث . ويمضى إلى مسجده هائماً بربه ، فيعرف الحارث أنه أصبح من المتصوفة الذين

أخلصوا وجوههم ونفوسهم إلى ربهم . فيرحل عنه ، وهو يقول له : هذا فراق بيني وبينك . وكانت هذه خاتمة التلاقي .

وبذلك تنتهى المقامات ، وقد أهمل الحريرى النهايتها خير تأهيل كما افتتحها خير افتتاح ، فهو فى أولها يعرف البطل براويته ، وهو فى خاتمها يفرق بينهما . وهو يعد للخاتمة بالمقامة الساسانية كما أسلفنا . وكل ذلك دليل بَيِّن على أن الحريرى صنع مقاماته بشكل بناء متكامل ، له أول واضح وله آخر واضح . ونراه يقدم لهذا البناء بمقدمة يذكر فيها أنه أقدم عليه محتدياً على عمل البديع ؛ فإن عظيماً وهو المستظهر ؛ ! طلب إليه أن ينشئ مقامات يصوغها على مثال مقامته . ونراه يتواضع إذ يقول إنه طلب منه أن يُقبله من هذا العمل الصعب ، فلما لم يسعفه بالإقالة لَبَّى دعوته تلبية المطيع . يقول : « وبذات فى مطاوعته جهد المستطيع ، وأنشأت — على ما أعانيه من اقريحة جامدة ، وفطنة خامدة ، وروبة ناضبة ، وهموم ناضبة — خمسين مقامة » .

وهذا تواضع جميل منه ، وقد كرره فى آخرها ، إذ ذهب يقول : « إنها من سَقَط المتاع ، ومما يستوجب أن يباع ولا يبتاع ، ولو غَشَّيْنِي نور التوفيق ، ونظرت لنفسى نظر الشفيق ، لَسَتَرْتُ عَوَارِي الذى لم يزل مستوراً ؛ ولكن كان ذلك فى الكتاب مسطوراً ، وأنا أَسْتَغْفِر الله تعالى مما أودعتها من أباطيل اللغو ، وأضاليل اللهو ؛ وأسترشده إلى ما يَعْصِم من السهو ، ويُحْظِي بالعفو ، إنه هو أهل التقوى وأهل المغفرة ، وولى الخيرات فى الدنيا والآخرة » .

على أنه ينبغي أن نعرف أن هذا التواضع الذى افتتح به مقاماته واختتمها لم يكن صادقاً فيه كل الصدق ، فقد كان مؤمناً بعمله ، وقد أجرى على لسان أبى زيد شهادات مختلفة تؤكد تفوقه وإحسانه ، فن حين إلى حين نراه يتحدث عن روعة كلامه وبلاغته ، حتى ليقول فى المقامة السابعة والأربعين :

إن يكن الإسكندرى قبلى فالطلُّ قد يبدو أمام الوَبَل
والفضل للوابل لا للطل

فهو يقدم أبا زيد على أبي الفتح الإسكندري ، وبالحرى أنه يقدم نفسه على بديع الزمان . وقد أكثر الحارث بن همام من وصف افتنان أبي زيد ومقدرته على حَوْك الكلام ، مع البلاغة الرائعة والبديهة المطاوعة والغَوْص في لُجَجَ البيان . وليس الحارث وحده هو الذى تبهره فصاحته ، فالولاة والحكام والقضاة والناس جميعاً يَفْتَسِنُونَ ببراعة عبارته ومُسلِّح استعارته ، وما ينظم وينثر من دُرِّه مما يخلب العقول ، ويسحر القلوب .

٣

الموضوع

تدور مقامة الحريرى على الكُدِيَّة والاستجداء ، وهو من هذه الناحية أدق من بديع الزمان ؛ فقد رأينا المقامة عنده إنما تدور على الكدية غالباً ، وأنه أشرك معها موضوعات أخرى ، فلم يقف بها عند الموضوع الأساسى . أما الحريرى فسلكتها جميعاً فى قالب الشحاذة ، وعرض أبا زيد فيها دائماً أديباً شحاذاً . غير أن هذه الحبكة الظاهرة ينبغى أن لا تغرنا ، وأن لا نطلق عن طريقها أحكامنا فإن الحريرى اتخذ الكدية شكلاً ظاهراً لمقامته ، وإذا أنعمنا النظر فيها وجدناه يعالج بها موضوعات مختلفة ، منها ما يشترك فيه مع البديع ، ومنها ما ينفرد به .

أما ما يشترك فيه معه فهو الوعظ ، وإذا كنا قد لاحظنا أن بديع الزمان عرض أبا الفتح الإسكندري وأعظماً فى مقامتين فإن الحريرى عرض أبا زيد وأعظماً فى عشر مقامات ، بل قد تزيد . ومنذ المقامة الأولى نجد هذه النزعة بارزة عنده ، وفيها يقول :

« أَيُّهَا السَّادِرُ فى غِلَاوَاتِهِ ، السَّادِلُ ثَوْبَ خَيْلَاتِهِ ، الجَامِحُ فى جَهَالَاتِهِ ، الجَانِحُ إلى خَزَعِيَلَاتِهِ ، إلَامُ تستمر على غَيْبِكَ ، وتَسْتَمَرُّ مَرَعَى بَغْيِكَ ، وحتام تتناهى فى زَهْوِكَ ، ولا تنتهى عن لَهْوِكَ ، تبارز بمعصيتك ، مَالِكَ نَاصِيَتِكَ ، وتجتري بقبج سيرتك ، على عالم سريرتك ، وتتوارى عن

قريبك ، وأنت بمرأى رقيبك ، وتستخفى من مملوكك ، وما تَخْفَى خافية*
على ملكك ، أتنظن أن ستنتفعك حالك ، إذا آن ارتحالك ، أو ينقذك
مالك ، حين تُؤبِقك أعمالك ، أو أن يغنى عنك ندمك ، إذا زلّت قدمك ،
أو يعطف عليك معشرك ، يوم يضمك محشرك ؟ . . . »

ويستمر في هذا الوعظ لا في هذه المقامة وحدها ، بل أيضاً في المقامة
الثانية ، والحادية عشرة ، والواحدة والعشرين ، والخامسة والعشرين ، والواحدة
والثلاثين ، والثالثة والثلاثين ، والواحدة والأربعين ، والثامنة والأربعين ، والخمسين .
ففي هذه المقامات جميعاً وفي قطع صغيرة من مقامات أخرى يحضُّ على الهدى
ويحث على العمل الصالح ، ويُنْزِرُ على الدنيا وَمَنْ يُغْرَمُونَ بها ، ويذكر
ثواب الآخرة وما ينتظر الناس . ولعل من أطرف ما صنعه في هذا الجانب أن
نجاهه في المقامة الثانية عشرة الدمشقية يقدم لنا أبا زيد خفياً لقافلة ، ونراه
يخفها لا بعينه ، بل بدعوات طيبات تطرد على هذا النسق :

« اللهم يا مُجِبِّي الرُّفَات ، ويا دافعَ الآفات ، ويا وافيَ المخافات ، ويا كريمَ
المكافاة ، ويا مَوْثِلَ العُفَاة ^(١) ، ويا وليَّ العفو والمعافة ، صلِّ على محمد خاتم
أنبيائك ، ومبلغ أنبيائك ؛ وعلى مصابيح أسرته ، ومفاتيح نُصْرته ، وأعدني
من نزغات الشياطين ، ونزوات السلاطين ، وإعنات الباغيين ، ومعاونة الطاغين ،
ومعاودة العادين ^(٢) ، وعدوان المعادين ، وغلب الغالبين ، وسلب السالين ،
وحيل المحتالين ، وغيب ^(٣) المعتالين ، وأجرني اللهم من جور المجاورين ^(٤) ،
ومجاورة الجائرين ، وكُفِّ عني أكُفَّ الضَّامنين ، وأخرجني من ظلمات
الظالمين ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ، اللهم حُطِّني في تربتي ^(٥) ،
وغُربتي ، وغُيبتي ، وأوبتي ، ونُجِّعني ^(٥) ورجعني ، وتصرفني ،

(١) العفاة : طلاب الحاجات . (٢) العادين : الظالمين . (٣) غيل : جمع
غيلة . (٤) المجاورين : الجن . (٥) تربتي : وطني . (٦) نجعتي : من
الفعل يتنجع أي يطلب المعروف .

وَمُنْصَرَفِي ، وَتَقْلِبِي ، وَمُسْتَقْدَبِي ، وَاحْفَظِي فِي نَفْسِي ، وَنَفَائِسِي ،
وَعَرَضِي ، وَعَرَضِي ^(١) وَعَدَدِي وَعَدَدِي . . . وَلَا تَلْحَقِي بِي تَغْيِيرًا ،
وَلَا تَسْلُطْ عَلَيَّ مُغْيِيرًا ، وَاجْعَلِي لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا . . . »

وَيَخَفُ الْحَرِيرِيُّ عَلَى النَّفْسِ فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ الَّتِي تَنْحُو نَحْوَ الْوَعْظِ
أَوْ الدِّعَاءِ بِخَفَةِ أَسْلُوبِهِ وَرَشَاقَةِ عِبَارَاتِهِ . فَإِذَا عَرَفْنَا أَنَّ النَّاسَ فِي عَصْرِهِ كَانُوا
يُولَوْنَ وَجُوهَهُمْ نَحْوَ الدِّينِ يَرْجُونَ مِنْ رَبِّهِمْ أَنْ يَخْرِجَهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ أَنْفُسِهِمْ
وِظُلُمَاتِ وَلَاتِهِمْ وَفَسَادِ مُلْكِهِمْ وَحُكْمِهِمْ ، وَأَنْ يَعِينَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ ضِدَّ الصَّلِيبِيِّينَ
مِمَّا دَفَعَهُمْ دَفْعًا ، أَوْ قَلَّ دَفْعٌ كَثِيرًا مِنْهُمْ إِلَى التَّصَوُّفِ ، وَأَنْ يَطْلُبُوا مَا عِنْدَ اللَّهِ
وَيَتْرَكُوا مَا عِنْدَ النَّاسِ . إِذَا عَرَفْنَا ذَلِكَ اسْتَطَعْنَا أَنْ نَقْدِرَ هَذِهِ الْمَوَاعِظَ وَالْأَدْعِيَةَ
الْحَرِيرِيَّةَ حَقَّ قَدْرِهَا ، وَأَنْ نَدْرِكَ مَدَى تَأْثِيرِهَا فِي الْأَدْبَاءِ وَالطَّلَابِ مِنْ حَوْلِهَا .
وَشُغِفَ الْحَرِيرِيُّ بِمَوْضُوعٍ ثَانٍ لَا يَتَّصِلُ هَذِهِ الْمَرَّةَ بِالْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَإِنَّمَا
يَتَّصِلُ بِالْحَيَاةِ الْأَدْبِيَّةِ فَقَدْ تَعَقَّدَتْ هَذِهِ الْحَيَاةُ ، وَأَخَذَ أَصْحَابُهَا يُعْنَوْنَ بِالْعُقُودِ
الْبَلَاغِيَّةِ . فَلَيْسَتْ الْبَلَاغَةُ الرَّائِعَةُ هِيَ الْعِبَارَةُ الْمُنْمَقَةُ بِالسَّجْعِ وَالْمَحَلَّةُ بِالْوَانِ الْبَدِيعِ ،
فَذَلِكَ أَمْرٌ يَهُونُ ، وَتَسْتَطِيعُ الْأَلْسُنُ كُلُّهَا أَنْ تَتَّصِلَ إِلَيْهِ . وَإِنَّمَا الْبَلَاغَةُ الرَّائِعَةُ
حَقًّا هِيَ الَّتِي تَتِيحُ لِصَاحِبِهَا أَنْ يَنْحَازَ جَمَلَةً عَنْ كُلِّ الطَّرِيقِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي الْفَنِّ ،
وَأَخَذَ الْحَرِيرِيُّ يُثَبِّتُ مَهَارَتَهُ فِي ذَلِكَ ، وَخَصَّ بِهِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَقَامَةً ، أَرَانَا فِيهَا
أَلْعَابَ الْفَنِّيَّةِ ، وَكَأَنَّهَا أَلْعَابُ بَهْلَوَانِيَّةٍ .

وَأَوَّلُ مَا يَلْقَانَا مِنْ هَذِهِ الْأَلْعَابِ الْمَقَامَةُ السَّادِسَةُ ، وَقَدْ حَضَرَ أَبُو زَيْدٍ دِيوَانَ
الْمَكَاتِبَاتِ بِبَلَدَةِ الْمَرَاغَةِ ، وَاجْتَمَعَ بِأَرْبَابِ الْبَرَاةِ وَالْبَلَاغَةِ ، فَأَرَادَ أَنْ يَرُوعَهُمْ
وَيُخَلِّبَ أَلْبَابَهُمْ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِمْ رِسَالَةً أَوْدَعَهَا شَرْحَ حَالِهِ . وَلَيْسَ هَذَا هُوَ
الْمَهْمُ ، إِنَّمَا الْمَهْمُ أَنَّهُ التَّرَمُّ فِيهَا أَنْ تَكُونَ حُرُوفٌ إِحْدَى كَلِمَتَيْهَا مَنْقُوطَةٌ وَحُرُوفُ
الثَّانِيَةِ غَيْرُ مَنْقُوطَةٍ ، عَلَى هَذِهِ الشَّكْلَةِ : « الْكُرْمُ ثَبَّتَ اللَّهُ جَيْشَ سَعُودِكَ
يَزِينَ ، وَاللَّوْثُ غَضَّ الدَّهْرُ جَفَنَ حَسُودُكَ يَشِينُ » . . . وَانْصَبَّ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ

مثل هذه الكلمات مطبلاً ما استطاع حتى بهر سامعيه ، وأوسعوه حفاوة وعطفاً وإكراماً .

وينحرف الحريري عن هذه الطريق الصعبة ، حتى إذا وصل إلى المقامة السادسة عشرة ، وهي المقامة المغربية ، وقف يعرض لُعبة جديدة لا تكاد تخطر ببال ، وهي لُعبة « ما لا يستحيل بالانعكاس » كقولك : ساكب كاس ، فإنه يمكن أن تُقرأ طرداً وعكساً فلا تتغير حروفها ، وعرض علينا أمثلة نثرية منها مثل : لُمُ أَخِيَّ مَلًّ ، كَسَبَرُ رَجَاءُ أَجْبَرُ رَبِك . ثم لم يلبث أن نشرها على أسلاك من الشعر ، فقال :

أُسْ ^(١) أَرْمَلًا إِذَا عَرَا	وَارُعَ إِذَا الْمَرْءُ أَسَا
أُسْنَدُ أَخَا نِبَاهَةِ	أَبِينُ ^(٢) إِخَاءٌ دَنَسَا
اسْلُ جَنَابَ غَاشِمٍ	مَشَاغِبٍ إِنْ جَلَسَا
اسْرُ ^(٣) إِذَا هَبَّ مِرَا ^(٤)	وَارُمَ بِهِ إِذَا رَسَا
اسْكُنْ تَقَوًى ^(٥) فَعَسَى	يُسْعِفُ أَوْقَتُ نَكَسَا

وما نطق أبو زيد بهذا الشعر حتى سحر السامعين بآياته . وقد لا نعجب نحن الآن بهذه الشعوذة ، ولكنها كانت تعد غاية بعيدة عندهم في الإبداع الفنى ، وكان الحريري يعرض عليهم منها ما يدل على تفوقه وإجادته وأنه يعد من أمهر اللاعبين وأكثرهم تجربة وحُسنكة .

ويدخل في هذه اللعبة أن نجده في المقامة السابعة عشرة ، وهي المقامة القهقرية ، يؤلف رسالة تُقرأ كلماتها من آخرها إلى أولها كما تقرأ من أولها إلى آخرها ، فهي ذات وجهين ، وتُنسَج على مِثَالَيْنِ إِنْ شئتَ قرأتها كما تقرأ الصحف والرسائل من اليمين إلى اليسار ، وَإِنْ شئتَ عكستها ، فقرأتها من

(١) أُس : أعط . (٢) أَبْن : أقطع . (٣) اسر : أمر من السرو بمعنى الشرف والترفع عن مشاركة الناس في الخصومات والجدل . (٤) المرا : الجدال . (٥) تقو : تقوى وهو مجزوم في جواب اسكن .

اليسار إلى اليمين . وهي مجموعة من الحكم أخرجها في مائة كلمة على هذا النحو :
« الإنسان صنعة الإحسان » فأنت تستطيع أن تقرأ هذه العبارة « الإحسان صنعة
الإنسان » وهكذا بقية الرسالة ، فهي تقوم على الطرد والعكس في الكلمات
لا في الحروف .

ونمضي إلى المقامة السادسة والعشرين ، وهي المقامة الرقطاء ، فنجده قد
عدل عن تسميتها ببلد من البلدان إلى هذا الاسم الذي سماها به لأنها تتكون
من كلمات راعى فيها أن تتوالى حروفها بالتبادل بين الإعجام والإهمال ،
أو بين النقط وعدم النقط ، وهي تجري على هذا النمط : « أخلاق سيدنا تُحَبِّ ،
وبعَقْوَتَه ^(١) يُلَبِّ ^(٢) ، وقربه تُحَفِّ ، ونأيه تلف ، وخُلُتَه ^(٣) نَسَب ،
وقطيعته نَصَب ، وغربه ^(٤) ذَلِق ، وشهبه تأتلق ، وظلمته ^(٥) زان ، وقويم
نهجه بان ، وذنه قَلَسَبَ وجَرَّب ، ونعته شَرَّقَ وغَرَّب :

سَيْدٌ قَلَسَبَ سَبَقٌ مُبِيرٌ ^(٦) فَطِنٌ مُغَرَّبٌ عَزُوفٌ عِيُوفٌ
مُخْلَفٌ مَتَلَفٌ أَغْرُ فَرِيدٌ نَابَةٌ فَاضِلٌ ذَكِيٌّ أَنْزَفُ ،

ويظل طويلا ، ينثر حيناً وينظم حيناً ، معبراً عن قدرته ومهارته في حشد
هذا النوع من الكلمات ، وكأنه طبَّاع يصف حروفاً متلاصقة ، فتألف له
الألفاظ ، وكأنها صناديق متجاورة .

وكان حريصاً أن يذيع في مقامته هذه اللعبة الدقيقة التي لا يؤتاها في رأيه إلا
البارعون في فن النثر والشعر جميعاً ، فقد رجع يستخدمها في المقامة الثامنة
والعشرين ، وهي المقامة السمرقندية ، وفيها نرى أبا زيد يرتقي منبر مسجد ،
ويخطب في الناس خطبة ، كل كلماتها غير منقوطة ، من مثل قوله : « اعملوا —

(١) العقوة : الفناء . (٢) يلب : يلزم . (٣) خلة : صداقة .

(٤) الغرب : السيف ، وذلق : حاد . (٥) الظلف : العفاف . (٦) مبر :

ير الناس .

رحمكم الله - عمل الصلحاء ، واكسحوا المعادكم كدح الأصحاء ، واردعوا أهواءكم ردع الأعداء ، وأعدوا للرحلة إعداد السعداء ، وادرعوا جلائل الورع ، وداووا عيائل الطمع . . وادكروا الحمام وسكرة مصرعه ، والرّمس^(١) وهول مطّلمعه ، واللحدّ ووحدة مودعه ، والمالك وروعة سؤاله ومطّلمعه .

وما يزال يتدفق بهذا الفيض العذب ، حتى يحكمها خطبة بديعة ، ولعله كان يفكر أثناءها أن يتفوق على ابن نُبّانة خطيب سيف الدولة المشهور ، فقد كانت خطبه تروع الناس ، وتناقلها الأدباء والرواة ، فأراد الحريري أن يثبت أنه ليس أقل منه شأنًا في هذا الباب ، بل لقد ذهب يصعب المسالك على نفسه ، فهو لا يخطب على سجيته ، بل يلتزم السجع والبديع ، ولكن ذلك غير كاف في رأيه للدلالة على مهارته البيانية ، وإذن فليشتق على نفسه ، وليشترط في خطبته أن تكون من كلمات خاصة في اللغة ، هي الكلمات المهملة الحروف .

على أن مجال القول واسع في خطبة يوم الجمعة ، ومن هنا نراه يفكر في خطبة عسيرة يجرب فيها هذه اللعبة التي راقته ، وأي خطبة أعسر من خطبة الزواج . فإن المتكلم فيها يكون متحرجًا ، ولا يعدو أن يتحدث عن الخاطب ، وأنه كفؤ لخطيبته ؟ وذلك هو الذي دفعه في المقامة التالية للمقامة السابقة ، وهي المقامة الواسطية ، أن يطلب هذه الخطبة وأن ينشر فيها فنه ، ويذيع بضاعته على هذا النحو :

« الحمد لله الملك المحمود ، المالك الودود ، مصور كل مولود ، ومآل كل مطرود ، ساطح المهاد ، وموطئ الأطواد ، ومرسل الأمطار ، ومسهل الأوطار ، عالم الأسرار ومدركها ، ومدبر الأملاك^(٢) ومهلكها . . طاوع^(٣) السؤل والأمل ، وأوسع المُرْمِلَ والأرمل ، أحمده حمدًا ممدودًا مداه . . وهو الله لا إله إلا هو سواه ، ولا صادع^(٤) لما عدّله وسواه ، أرسل محمدًا علمًا للإسلام ، وإمامًا

(١) الرمس : القبر : (٢) الأملاك : الملوك والدول .

(٣) طاوع : أجاب . (٤) صادع : صارف .

للحكام . . اعملوا - رعاكم الله - أصلح الأعمال ، واسلكوا مسالك الحلال ،
 واطرحوا الحرام ودعوه ، واسمعوا أمر الله وعُوه ، وصلوا الأرحام وراعوها ،
 وعاصوا الأهواء واردعوها ، وصاهروا لُحَم الصلاح والورع ، وصارموا رَهْطَ
 اللهو والطمع ، ومُصاهرُكم أظهر الأحرار مولداً ، وأسراهم ^(١) سُودُداً ،
 وأحلاهم مورداً ، وأصحبهم موعدا . . »

وما يزال يبدي ويعيد في هذا النسج العاقل من النقط . ويظهر أنه لم يقتنع
 بهذه التجربة وما سبقها ، فعاد في المقامة السادسة والأربعين ، وهي المقامة الحلبية
 يعرض نماذج جديدة من الشعر ، بعضها منقوط ، وبعضها غير منقوط ، ومن
 مثال المنقوط قوله :

فَسَتَنَّتْنِي فَجَسَّتْنِي تَسَجَنَّتِي ^(٢) بتجنُّ يفتنُّ غِبَّ تَسَجَنَّتِي

وكانه رأى هذه النماذج دون غايته ، فصاغ نموذجاً تتوالى فيه كلمات
 الأبيات ، وإحداها منقوطة ، والثانية غير منقوطة على هذه الصورة :
 اسْمَحْ فَبْتُ السَّاحِ زَيْنُ* ولا تُخِبْ آملاً تَصَيِّفُ
 ولم يكفه هذا النموذج ، فأضاف إليه نموذجاً آخر يقوم على التجنيس
 الخطى بين الكلمات ، بحيث لو حذفت النقط منها تراءت متماثلة تمام التماثل من
 مثل قوله :

زَيْنَتْ زَيْنُ بَقْدُ يَقْدُ وتلاه ويلاه نَهْدُ يَهْدُ

وكان هذا الجناس لم يبلغه كل أمنيته ، فذهب ينظم بيتين ، تتجانس
 فيهما فاتحتهما وخاتمتها إذ يقول :

سِمَ سِمَةً تحسنُ آثارها واشكرُ لمن أعطى ولو سِمَ سِمَةً
 والمكرُ مهما استطعتَ لآثاته لتقتنى السؤددَ والمكرُ ممة

فهو يضيق على نفسه في اصطناع الجناس إذ يلتزمه في مطلع البيت وفي
 نهايته . كل ذلك ليدل على تفوقه . ولم يلبث أن أوغل في الغريب ، فأنشد

أبياتاً لما يشكل من الكلمات ذوات السين وأخرى لما يجرى على السين والصاد ،
وتمدى فى مسائل لغوية عسيرة .

والحريرى فى هذا كله كأنه حاور من الحواة ، فهو يعرض ألعاباً وتمارين
هندسية غريبة ، أو قل إنه يعرض أفاعى البلاغة بأديمها الملوّن بالنقط والجناس
الخطى وغيرهما . ومن هذه الأفاعى وأجملها فى نفسه ورأيه أفاعى الأمثال ،
فقد حشا مقاماته بها ، وتفرّدت بعضها كأنها هى الغاية من تأليفها أو قل
هى الموضوع على نحو ما يرى القارئ فى المقامة التاسعة عشرة والسابعة والعشرين
والأربعين والسابعة والأربعين . غير أن من الحق أن نقول إن الحريرى لم يَسْمَعْ
فى ذلك كله فقد كان يحميه طبع حاد وإحساس دقيق باللغة ، فيزّ دائماً
الخبث من الطيب والجيد من الردىء ، فهما لعب ، ومهما أشكل تمارين فى
مقاماته فإنه لا يثقل . ولعل من خير الأمثلة على ذلك مقامته الثالثة والعشرين ،
وهى المقامة الشعرية ، وعنوانها يدل على ما أرادها بها من إعلان مقدرته فى النظم ،
وقد فكر وانتهى به تفكيره إلى نظم هذه الأبيات :

يا خاطب الدنيا الدنيّة إنها	شَرَكُ الرَّدَى وقَرارةُ الأَكْدارِ
دارٌ متى ما أضحكْتَ فى يومها	أبكتْ غداً بُعْداً لها من دارِ
غاراتُها ما تنقضى وأسيرُها	لا يُفْتَدَى بجلائل الأخطارِ

واستمر حتى أتم قصيدة طويلة . وليس فى ظاهر الأبيات شىء ، ولكن
إذا أطلنا النظر فيها لاحظنا ما ابتغاه منها ، فإنه التزم فى داخلها قافية غير
القافية الخارجية ، بحيث يمكن أن تنشّد القصيدة كلها على هذا النمط :

يا خاطب الدنيا الدنيّة	ة إنها شرَكُ الرَّدَى
دارٌ متى ما أضحكْتَ	فى يومها أبكتْ غداً
غاراتُها ما تنقضى	وأسيرُها لا يُفْتَدَى

ومن غير شك هذه المقامات كلها التى تحدثنا عنها إنما أراد بها الحريرى

إلى هذه اللعب الأدبية ، ولذلك زعمنا أنها الموضوع الحقيقي الذي أرادته منها فأبو زيد ليس إلا حيلة لعرضها وتصويرها وحبسك رسومها وبيان دقائقها .
وشاعت في هذا العصر الألغاز ، يلغز الأدباء بكلمات أو بأوصاف لأشياء ،
يمتحنون بها ذكاء السامع ومدى حضور بديهته . ولعل ذلك ما جعل الحريري
يختص الألغاز بثلاث مقامات ، هي المقامات السادسة والثلاثون والثانية والأربعون
والرابعة والأربعون ، فكلها أُلِّفَت للتحاجي والمطارحة وامتحان الأملية ، في
استخراج المعاني الخفية . وقد شرحها الحريري بنفسه إما في متن المقامة ، وإما
بحاشية ألحقها بها مثل قوله :

وقادرين متى ما ساء صُنْعُهُمْ^١ أو قصَّروا فيه قالوا الذنبُ للخطِّبِ
فقد ألغز في قادرين إذ أراد بها الطابعين بالقصور ، ومن ذلك قوله :
وكاتبين وما خطَّتْ^٢ أناملُهُمْ^٣ حَرَفًا ولا قرءوا ما خُطَّ في الكتبِ
فقد ألغز في كاتبين إذ أراد بها الخرازين . وقد لا تعجبنا هذه الألغاز
اليوم ، ولكنها كانت مقياساً للذكاء عندهم ، وكان الكتاب والشعراء يتسابقون
في صنعها وإحكامها .

وعلى نحو ما جعل الألغاز موضوعاً لبعض مقاماته جعل النحو والفقه أيضاً
موضوعين لها ، ولم يتوسع في ذلك ، فقد خصَّ النحو بمقامة واحدة هي المقامة
الرابعة والعشرون وهي المقامة القطيعية ، بسط فيها اثنتي عشرة مسألة نحوية ،
أما الفقه فأفرد له مقامتين ، هما المقامة الخامسة عشرة المسماة بالفَرَضِيَّة ، تحدث
فيها عن مشكلة من مشاكل علم الميراث أو علم الفرائض وأنصبة الورثة ، وأثبت
حلّها ، ثم المقامة الثانية والثلاثون التي سماها الطَّيْبِيَّة نسبة إلى طَيْبَةَ وهي المدينة ،
وقد ضمَّنتها مائة مسألة فقهية وأجوبتها مفسَّراً في أثنائها الكلمات الغريبة .
ونحن نعرض على القارئ قطعة منها لنتبين كيف كان يجمع المسائل الفقهية
والإجابة عنها جمعاً ويرصّها رصّاً . ويعرض المسائل فقيهاً ويجيبه أبو زيد
على هذا النحو .

« أيجوز الوضوء مما يقذفه الثعبان ؟ قال : وهل أنظف منه للعربان (الثعبان جمع ثعب وهو مسيل الوادى) قال : أيسْتَباح ماء الضرير ^(١) ؟ قال : نعم ويُجْتَنَّب ماء البصير . (الضرير : حرف الوادى والبصير : الكلب) ... قال : فما تقول : فيمن تيمم ثم رأى رَوْضًا ، قال : بطل تيممه فليتوضأ (الروض : جمع روضة وهي الصُّبابة تبقى في الحوض) قال : أَيْصَلَّى على رأس الكلب ؟ قال : نعم كسائر الهَضَب (رأس الكلب : ثنية معروفة) قال : فإن حمل جِرَواً وصلَّى ، قال : هو كما لو حمل باقلاً ^(٢) (الجِرو : الصغار من القثاء والمان) قال : أيجوز أن يؤمَّ الرجالَ مقنَّع ^(٣) ؟ قال : نعم ويؤمهم مدرَّع (المقنَّع : لابس المغفر ^(٤) ، والمدرَّع : لابس الدرع) قال : فإن أمَّهم من في يده وقف ؟ قال : يعيدون ولو أنهم ألف (الوقف : السوار من العاج) . . قال فإن أمَّهم الثور الأجم ^(٥) ؟ قال : صَلِّ وَخَلَاكَ ذَمٌّ : (الثور : السيد ، والأجم : الذى لا رمح معه) قال : أيدخل القَصْر ^(٥) في صلاة الشاهد ؟ قال : لا والغائب ^(٦) الشاهد (صلاة الشاهد : صلاة المغرب سميت بذلك لإقامتها عند طلوع النجم ، لأن النجم يسمى الشاهد) . . قال : فهل للمعرَّس أن يأكل في رمضان ؟ قال : نعم بملء فيه (المعرَّس : المسافر الذى ينزل في آخر ليله ليستريح ، ثم يرتحل) قال : فإن أفطر فيه العُرَّة قال : لا تنكر عليهم الولاة (العرة : الذين تأخذهم العُرَّاء ، وهى الحُمَّى برعدة) قال : فإن أكل الصائم بعد ما أصبح ؟ قال : هو أحوطُ له وأصلح (أصبح : استصبح بالمصباح) : قال : فإن أكل قبل أن تتواري البيضاء ؟ قال : يلزمه والله القضاء (البيضاء : من أسماء الشمس) » .

(١) الضرير : الأعمى ، وليس ذلك المعنى المراد كما هو واضح .

(٢) الباقلاء : النبات المعروف باسم الرحلة . (٣) المقنَّع هنا : من يلبس القناع .

(٤) المغفر : رداء تضعه المرأة على وجهها وأصله سلاح الحرب يوقى به الرأس .

(٥) القصر : تقصير الفروض الرباعية بجعلها اثنتين . (٦) الغائب الشاهد : هو الله عز وجل لأنه يغيب عن أبصارنا ويشاهدنا ويطلع علينا .

ويسترسل الحريري في أسئلته وعرض أجوبتها، وواضح أنه يحتال في السؤال حيلة لغوية، فيذكر كلمة لها معنى مشهور، ويريد بها معنى لغوياً غير معروف. وبذلك يطرف قارئه، ويوسع معجمه اللغوي. فالمقامة لا يراد بها الفقه فقط، بل يراد بها اللغة أيضاً.

وعلى هذه الشاكلة كان الحريري يعنى في مقاماته باللغة، وحتى هو إن تركها إلى الفقه أو غيره لم يستسها ولم يهملها، فهو «كإبرة البوصلة» يتجه إليها دائماً. ولعل ذلك ما جعله ينبذ عصره ومجتمعه، فليس في مقاماته منهما إلا ظلال خفيفة كأن يذكر دُبَيْسَ الأَسَدِي في المقامة العمانية، وكان أميراً في حِلَّةِ العراق لزمه، أو يذكر ظلم الولاة أو يصور بعض الأسواق أو بعض عاداتهم حينئذ، كاتخاذ العود والأحجية والتأمم، أو يصور بعض من يتظاهرون بالدين ويبطنون إلحاداً وضلالاً. غير أن هذا كله محدود بحيث إذا قلنا إن مقاماته ليست إلا شباكاً لصور من الكلمات لم نُبْعِدْ، ولم نكن من المغالين.

٤

الأسلوب

وضع الحريري مقامته على أسلوب البديع في مقامته من حيث الحوار المحدود بين الراوي والبطل، ومن حيث هذه الصيغة الثابتة في أول المقامة «حدثنا: .». فقمامته تأخذ أسلوب القصة، وهي أكثر حبكة من مقامة البديع، ولكن لا تزال الغاية القصصية بعيدة عن الحريري، إذ لم يحاول فعلاً أن يقدم لنا قصة، وإنما حاول أن يقدم حديثاً فيه ما يشوق عن طريق أبي زيد، هذا الأديب الشحاذ الذي يظهر في مناظر مختلفة وبلدان مختلفة، وهو حديث لا يراد لذاته، وإنما يراد لعرض أساليب أدبية بديعة.

فالأسلوب هو غاية الحريرى من مقامته ، وإذن فمن الخطأ أن نطلب عنده كيان القصة الخيى ، أو مدى تصوره للنفس الإنسانية ، فإنه لم يفكر فى شىء من ذلك ، إنما فكر فى أن يروع معاصريه بما يعرضه من الشكل الخارجى لمقامته ، وقد رأيناه يعتمد إلى منحرفات أدبية يسوق فيها بعض مقاماته ، إذ يعرض بعض الألعاب البلاغية التى كانت تروق عصره من مثل خطبة عاطلة من النقط ، أو قطعة شعرٍ حاليةٍ به ، أو رسالة تقرأ من آخرها إلى أولها أو أبيات من الشعر تجرى على نفس المنوال .

وكل هذا عنده معناه أنه كان يحاول جاهداً أن يلائم بين عصره وبين مقامته فقد رأى الأدباء الذين سبقوه وعلى رأسهم أبو العلاء أوغلوا فى عقد مختلفة ، فلم يخرج عليهم ، بل حاول أن يجاريهم .

ومع ذلك فإنه قصر عقده أو ألعابه على مقامات خاصة ، هى تلك التى عرضنا لها آنفاً ولم يحاول أن يغرق إلى أذنيه فى تلك العقد ، بل اختار منها أشياء خفيفة ، اقتصر فى تطبيقها على طائفة من مقاماته ، وترك بقيتها حرة غير مقيدة بهذه القيود الثقيلة ، ونستطيع أن نعرف مدى تخلصه فى الجملة من هذه الأعباء التى كان يروح تحتها أدباء عصره ، إذا وازنا بينه وبين أبى العلاء فى رسالة الغفران .

فنحن نجد عند الأخير ثقلاً ، ولا نستطيع أن نتقدم دائماً فى قراءته ، بل نقوم أمامنا حواجز اللغة ، إذ عُنِيَ أبو العلاء بأن تكون آثاره كأنها متون . وإذا انتقلنا فقرأنا فى كتابه « الفصول والغايات » وجدنا أنفسنا بإزاء غابات ملتفة ، كلها صعوبات وانحرافات عن الطرق الطبيعية فى الكتابة .

وكان الحريرى يرى تعلق معاصريه بمثل هذه الصورة ، فلم يَسْتَفْها جُملة من عمله ، بل استأثر بها ، ولكن فى بعض جوانب مقامته ، حتى يشب أنه لا يقل مهارة عن غيره ، بل إنه يتقدم كل معاصريه لو شاء أن يستخدم هذه الألعاب السحرية ، حتى الألغاز حاول أن يؤلف منها بعض مقامات ليسرى

الأدباء أنه يستطيع . أن يصبَّ في جميع القوالب ، وأن ينحت ما يشاء من تماثيل .

ثم تعود إليه نفسه أو تعود إليه طبيعته ، فإذا هو ينفر من تلك اللعب والتمارين ويعود إلى بديهته المطاوعة ، فيُرضى عِنانها ، ويسوق أسلوباً متحرراً من هذه الأثقال . ونقرأ فإذا بنا نقع على أجمل ما استطاع العرب في عصورهم الوسطى أن ينسجوه من صياغات بديعة .

وهي صياغات تقوم على السجع والتشديد في استخدامه ، إذ كان الأسلوب العام للكتابة ، ولكنه يأخذ منازل ، تارة تضاف إليه تعقيدات ، وتارة يخلو منها جملة ، وتارة ثالثة ينزل منزلة وسطى بين الطرفين .

وخضع الحريري في سجعه لألوان البديع ، وللجناس خاصة ، ولكن لم يثقل عنده ، فقد كان يعرف كيف يسر النفس، ويشرح الصدر ، وكان لديه من الذكاء والإحساس بألفاظ اللغة ما جعله ينفي عن عمله كل غضاضة وكل ضيق . فما تقرأه حتى تشعر أنك ارتبطت به ، وأنه عقد بينك وبينه رابطة مودة ، لا لسبب إلا لأنه كان يعرف كيف يختار ألفاظه ، وكيف ينتخبها ، بحيث تلتئم مجموعاتنا على نحو ما تلتئم الأنغام الصادرة عن آلات موسيقية مختلفة . ومقامة الحريري في الحقيقة تتفوق من هذه الناحية على كل ما خلفته لنا العصور الوسطى ، فقد انتهى صاحبها من حيث جمال اللفظ إلى القمة ، ووقف الأدباء والنقاد أمامه مشدوهين ، إذ وجدوا في أسلوبه حيوية نافذة .

ومردّ هذه الحيوية إلى هذا الثوب المتوهج من السجع ، الذي لا نجد فيه نقصاً ، فقد فصله وقطّعه وشأه ذوق رفيع ، كان يعرف كيف يضع الكلمة بجوار الكلمة ، وكيف يشد اللفظة إلى أختها وكأنه عازف قيثارة .

وقد قالوا إنه أمضى تسع سنوات من سنة ٤٩٥ إلى سنة ٥٠٤ يؤلف هذا العمل الفريد ، وهي ليست مدة كبيرة بجانب ما أودعه من إحسان وإبداع . وما أذاعه حتى تدافع عليه الطلاب من العالم الإسلامي ، وتزاحموا ببابه على نحو

ما يتزاحم في عصرنا الناس على أبواب دور الحياة عند ظهور الممثلين الممتازين بأشخاصهم .

ومع ما يقوله في مقدمته من أنه وشحه بالآيات ومحاسن الكنايات ورصعته بالأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجي النحوية والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المحبّرة . مع ذلك كله لم تتضعّب الكتابة عنده ، ولم تتحول إلى ما يشبه السرايب المظلمة ، بل ظل لها رشاقة وخفة هي خفة أديب ، عشق مهنته ، واطلع على أسرارها ، وأداعها في هذا الأسلوب الأخاذ ، الذي استعان في صوغه بسرعة خاطره .

ونحن لا نلاحظ هذه السرعة وحدها في تدفق الألفاظ عليه ، يختار منها أجودها ، وأحكمها ، وأدقها وأضبطها ، بل نلاحظها في شيء مهم هو تفتح ذهنه بالفكاهة ، حتى لا نبالغ إذا قلنا إنه طبع أملاوب مقامته بروح فكاهي ، وهو روح يسود في جوانب مختلفة في مقاماته ، وخاصة تلك التي يظهر فيها أبو زيد مع زوجته أو مع ابنه ، وقد اختصم مع أحدهما ، معممياً حقيقته ، ومرتفعاً إلى قاض أو وال أو صاحب شرطة ليفصل بينهما .

ويبرز هذا الروح الفكاهة في المقامة الثالثة عشرة ، وهي المقامة البغدادية ، وفيها يترأى أبو زيد امرأة عجوزاً ، يتبعها أطفال ، وهي تستجدي لليتامى ، ناعية حظّها ، باكية أهلها وبعلمها . وتتجلّى الفكاهة أقوى ما تكون في المقامة الثلاثين ، وهي المقامة الصّورية ، وفيها نرى الحارث بن همام يشهد عقد زواج لعروس من آل ساسان أصحاب الكدية والشحاذة ، ويعقد العقد شيخهم المفضل أبو زيد السروجي ، وهي تجري على هذا النمط :

« حكي الحارث بن همام ، قال : ارتحلت من مدينة^(١) المنصور إلى بلدة صور^(٢) ، فلما حصلت بها ذا رفعة وخفّض^(٣) ، ومالك رَفَع .

(١) مدينة المنصور : بغداد ، لأنه بانها . (٢) صور : بلدة على ساحل لبنان .

(٣) خفّض : نعمة .

وَحَقَّقْتُ^(١) ، تَقَعْتُ إلى مصر تَوَقَّانَ السَّقِيمَ إلى الأُساة^(٢) ، والكريم إلى
المواساة ، فرفضت^(٣) علائق^(٤) الاستقامة ، ونفَضْتُ عَوَائِقَ الإِقَامَةِ ،
وَأَعْرَوْرَيْتُ^(٥) ظَهَرَ ابْنِ النِّعَامَةِ^(٦) ، وَأَجْفَلْتُ^(٧) نَحْوَهَا إِجْفَالَ النِّعَامَةِ ،
فَلَمَّا دَخَلْتُهَا بَعْدَ مَعَانَاةِ الْأَيْسِ^(٨) ، وَمَدَانَاةِ الْحَيْنِ^(٩) كَلَفْتُ بِهَا كَلَفَ
الشَّوْثَانِ بِالْإِصْطِبَاحِ^(١٠) ، وَالْحِيرَانِ بِتَنْفَسِ الصَّبَاحِ . فَبَيْنَمَا أَنَا يَوْمًا بِهَا أَطُوفُ ،
وَتَحْتَى فَرَسٌ قَطُوفُ^(١١) ، إِذْ رَأَيْتُ عَلَى جُرْدٍ^(١٢) مِنَ الْحَيْثِلِ ، عُصْبَةً
كَمَصَابِيحِ اللَّيْلِ ، فَسَأَلْتُ لِانْتِجَاعِ^(١٣) النَّزْهَةِ ، عَنِ الْعُصْبَةِ وَالْوَجْهَةِ ،
فَقِيلَ : أَمَا الْقَوْمُ فَتَاهُودُ ، وَأَمَا الْمَقْصِدُ فِيمَلَاكُ^(١٤) مَشْهُودُ ، فَتَحَدَّثَنِي
مَسِيحَةُ^(١٥) الشَّاطِطِ ، عَلَى أَنَّ سِرْتُ مَعَ الْفَرَّاطِ^(١٦) ، لِأَفُوزَ بِخَلَاوَةِ اللَّقَاطِ^(١٧) ،
وَأُحْوزَ حَلَاوَةَ السَّمَاطِ^(١٨) ، فَأَفْضَيْتُنَا بَعْدَ مَكَابِدَةِ الْعَنَاءِ ، إِلَى دَارِ رَفِيعَةِ
الْبِنَاءِ ، وَسِيعَةِ الْفَنَاءِ ، تَشْهَدُ لِبَانِيهَا بِالثَّرَاءِ وَالسَّنَاءِ . فَلَمَّا نَزَلْنَا عَنْ صَهَوَاتِ^(١٩)
الْخَيُْولِ ، وَقَدْ مَنَّا الْأَقْدَامَ لِلدَّخُولِ ، رَأَيْتُ دِهْلِيزَهَا مَجْدَلًا^(٢٠) بِأَطْمَارِ^(٢١) مَحْرَقَةٍ ،
وَمَكْدَلًا بِمَخَارِفِ^(٢٢) مَعْلَقَةٍ ، وَهَنَّاكَ شَخْصٌ عَلَى قَطِيفَةٍ ، فَوْقَ دَكَّةٍ لَطِيفَةٍ ،
فَرَانِي^(٢٣) عُنْوَانُ الصَّحِيفَةِ ، وَمَرَّأَى هَذِهِ الطَّرِيفَةِ^(٢٤) ، وَدَعَانِي التَّطْيِيرُ بِتِلْكَ

-
- (١) الرفع والخفض : الإِعْلَاءُ وَالْخَطُ . (٢) الأُساة : جَمْعُ آسٍ وَهُوَ الطَّبِيبُ .
(٣) رَفَضْتُ : تَرَكْتُ . (٤) عِلَائِقُ : أَسْبَابُ .
(٥) أَعْرَوْرَيْتُ : رَكَبْتُهَا . (٦) ابْنُ النِّعَامَةِ : اسْمُ فَرَسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ .
(٧) أَجْفَلْتُ : أَسْرَعْتُ ، وَيَضْرِبُ الْمَثْلَ بِالنِّعَامَةِ فِي السَّرْعَةِ . (٨) الْأَيْسُ : التَّعَبُ .
(٩) الْحَيْنُ : الْمَوْتُ وَالْهَلَاكُ . (١٠) الْإِصْطِبَاحُ : شَرَبُ الْخَمْرِ فِي الصَّبَاحِ .
(١١) قَطُوفٌ : بَطِيءٌ . (١٢) الْجُرْدُ : جَمْعُ أَجْرَدٍ ، وَهُوَ قَصِيرُ الشَّعْرِ ، وَذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ
الْحَيْثِلِ الْكَرِيمَةِ . (١٣) انْتِجَاعُ : طَلَبُ . (١٤) إِمْلَاكُ : تَزْوِيجُ . (١٥) مَسِيحَةُ
الشَّاطِطِ : سَوْرَتُهُ وَحَدَّتُهُ . (١٦) الْفَرَّاطُ : جَمْعُ فَارِطٍ وَهُوَ الَّذِي يُسَبِّقُ الْقَوْمَ إِلَى الْمَاءِ وَالْكَلَاءِ .
(١٧) اللَّقَاطُ : مَا يَلْتَقِطُ فِي الْعَرَسِ . (١٨) السَّمَاطُ : الْخَوَانُ الْمَمْدُودُ فِي الْوَلَانِمْ .
(١٩) صَهَوَاتُ : ظُهُورُ . (٢٠) مَجْدَلًا : مَغْطًى . (٢١) أَطْمَارُ : خُرْقُ
وُثْيَابٍ بِالْيَةِ . (٢٢) الْمَخَاوِفُ : جَمْعُ مَخُوفٍ ، وَهُوَ الزَّنْبِيلُ الَّذِي يُضَعُ فِيهِ الشَّحَاذُ طَعَامُهُ .
(٢٣) رَانِي : شَكَاكُنِي ، وَكُنِيَ بِعُنْوَانِ الصَّحِيفَةِ عَمَّا رَأَى بَادِيَّ بَدْءِ . (٢٤) الطَّرِيفَةُ : الْعَجِيبَةُ .

المناحس^(١) إلى أن عمدت لذلك الجالس ، فعزمت عليه بمصرف الأقدار ،
 لَيْعْرِفَنِي مَنْ رَبُّ هَذِهِ الدَّارِ ؟ فقال : ليس لها مالكٌ معيّن ، ولا صاحبٌ
 مبين ، إنما هي مَصْطَبَةُ الْمُقَيِّفِينَ^(٢) ، والمُدْرُوزِينَ^(٣) ، ووليجة^(٤)
 المُشَقِّقِينَ^(٥) ، والمُجَلَّوزِينَ^(٦) ، فقلتُ في نفسي : إنا لله ! على ضلّاة
 المسعّى ، وإمّحال^(٧) المرعى ، وهَمَمْتُ في الحال بالرّجعى ، لكنني
 استهجنْتُ العودَ من فَوْرَى والقهقرة^(٨) دون غیری ، فولّجتُ^(٩) الدارَ متجرّعا
 الغصص ، كما يسلجُ العصفورُ القفص ، فإذا فيها أرائك^(١٠) منقرشة ، وطنافس^(١١)
 مفروشة ، ونمارق^(١٢) مصفوفة ، وسجوف^(١٣) مرصوفة ، وقد أقبل المملك^(١٤)
 يَمِيس^(١٥) في بُردته ، ويَتَبَهَّهَسُ^(١٦) بين حَفَدَتِهِ^(١٧) ، فحين جَلَسَ
 كأنه ابنُ ماء السماء^(١٨) ، نادى مُناد من قِبَلِ الأحماء^(١٩) : وَحُرْمَةٌ
 ساسان أستاذ الأستاذين ، وقُدْوَةُ الشّحّاذين ، لا عَقَدَ هذا العقدَ المِجَلَّ ،
 في هذا اليومِ الأغرِ المِجَلَّ ، إلا الذي جال وجاب^(٢٠) ، وشبَّ في الكُدَيَّةِ
 وشاب . فأعجب رهطُ الصّهر ما أشار إليه ، وأذِنوا في إحضار المنصوص^(٢١)
 عليه . فبرز حينئذ شيخ قد أمال الملوان^(٢٢) قامته ، ونورَ الفَتَيَّانِ ثَغَامَتَهُ^(٢٣) .

(١) المناحس : الأحوال المنحوسة . (٢) المقيفين : الشحاذين .

(٣) المدروزين : أصحاب الحرف الدنيئة . (٤) وليجة : مدخل .

(٥) المشققين : المتفاحصين بالكلام وهم أهل الكدية والشحاذة . (٦) المجلوز :

اصطلاح عند أهل الكدية لمن يتحدث منهم عن فضائل الصحابة . (٧) إمحال : جذب .

(٨) القهقرة : الرجوع . (٩) ولجت : دخلت . (١٠) أرائك : أسرة

(١١) طنافس : بسط . (١٢) النمارق : الوسائد . (١٣) سجوف : ستائر .

(١٤) المملك : العروس . (١٥) يَمِيس : يتبختر .

(١٦) يتبهس : يَمِيس . (١٧) الحفدة : الخدم والأتباع ، جمع حافد . (١٨) ابن

ماء السماء : ملك من ملوك الحيرة في الجاهلية وهو المنذر بن النعمان . (١٩) الأحماء : الأقارب

للزواج والزوجة . (٢٠) جاب الطرق : قطعها . (٢١) المنصوص عليه : هو شيخ أهل

الكدية المذكور آنفاً . (٢٢) الملوان : الليل والنهار وكذلك الفتیان .

(٢٣) ثغامته : شبيه وأصل الثغامة : شجرة ذات زهر أبيض .

فتباشرت الجماعة بإقباله ، وتبادرت إلى استقباله ، فلما جلس على زُرْبِيَّتِهِ^(١) ،
وسكنت الضوضاء لهيبته ، ازدلف^(٢) إلى مَسْنَدِهِ ، ومسحَ سَبَلَتِهِ^(٣) بيده ،
ثم قال :

الحمد لله المبتدئ بالإفضال ، المبتدع^(٤) للنَّوَالِ^(٥) ، المتقرب إليه
بالسؤال ، المُمَثِّلُ لتحقيق الآمال ، الذى شَرَعَ الزكاة فى الأموال ، وزجرَ
عن نَهْرٍ^(٦) السؤال ، وندبَ^(٧) إلى مواساة المضطر ، وأمر بإطعام القانع^(٨) .
والمُعْتَرَّ^(٩) ، ووصف عباده المقربين فى كتابه المبين ، فقال وهو أصدق
القائلين ، والذين فى أموالهم حقٌ معلوم ، للسائل والمحروم^(١٠) ، أحمدته على
ما رزق من طُعْمَةٍ هَسِيَّةٍ ، وأعوذ به من استماع دعوة بلانيَّة ، وأشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهاً يجرى المتصدقين والمتصدقات ، ويمسح
الربا ويربى^(١١) الصَّدَقَات ، وأشهد أن محمداً عبده الرحيم ، ورسوله الكريم ،
ابتعثه لينسخ الظلمة بالضياء ، وينتصف للفقراء من الأغنياء ، فرفق صلى
الله عليه وسلم بالمسكين ، وخفض^(١٢) جناحه للمستكين ، وفرض الحقوق
فى أموال المُشْرِينَ ، وبيَّن ما يجب للمُتْقِلِينَ على المكثرين ، صلى الله عليه
صلاة تحظييه بالزُلْفَةِ^(١٣) ، وعلى أصفياه أهل الصَّفَةِ^(١٤) . أما بعد فإن
الله تعالى شرع الزواج لتتعفّفوا ، وسنّ التناسل لكى تتضاعفوا ، فقال
سبحانه لتعرفوا : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى ، وجعلناكم

(١) الزربية : بساط منقوش . (٢) ازدلف : اقترب .

(٣) السبلة : اللحية . (٤) المبتدع : المبتدئ .

(٥) النوال : العطاء . (٦) نهر : زجر . (٧) ندب : حرص وحبب .

(٨) القانع هنا : السائل . (٩) المعتز : الذى يتعرض للسؤال ولا يسأل .

(١٠) المحروم : الذى حرم الرزق . (١١) يربى : يزيد وينمى .

(١٢) خفض الجناح : كناية عن التواضع . (١٣) الزلفة : القرب من الله .

(١٤) أهل الصفة : جماعة من المهاجرين جعلهم الرسول ضيوفاً على الإسلام لفرهم وحاجتهم .

شعوبًا وقبائل لتعارفوا) . وهذا أبو الدَّرَّاج^(١) ولأَج^(٢) بن خَرَّاج ، ذو الوجه
الوقاح ، والإفك الصَّرَّاح^(٣) ، والهرير^(٤) والصباح ، والإبرام^(٥) والإلحاح ،
يخطب سَلِيطة^(٦) أهلها ، وشريطة^(٧) بَعْلِيها ، قَسْبَسَ بنت
أبي العَنْسَبَس ، لما بلغه من التحافها بإلحافها^(٨) ، وإسرافها في إسفافها وانكماشها
على معاشها ، وانتعاشها عند هراشها^(٩) ، وقد بذل لها من الصَّدَاق^(١٠) شلاقًا^(١١)
وعُكَّازًا ، وصقاعًا^(١٢) وكِرَّازًا^(١٣) فزوّجوه زواج مِثْلِه ، وصلّوا حتَبَلَسَكم
بِحَبْلِه ، وإن خفتم عَيْلَةً^(١٤) فسوف يغنيكم الله من فضله ، أقول قولي هذا
وأستغفر الله العظيم لي ولكم ، وأسأله أن يُكثِر في المصاطب نَسْلَكم ، ويحرس
من المعاطب شَمْلَكم .

فلما فرغ الشيخ من خُطْبَتِه ، وأبْرَم^(١٥) للختَنِ^(١٦) عَقْدَ خِطْبَتِه^(١٧) ،
تساقط من النِّشَار^(١٨) ، ما استغرق حنْدَ الإكثار ، وأغْرَى الشَّحِيحَ بالإيثار^(١٩) ،
ثم نهض الشيخ يَسْتَحَب ذلّاه^(٢٠) ، وَيَقْدُمُ أَرَاذِلَه^(٢١) . قال الحارث
ابن هَسَّام :

فتبعته لأنظر عُرْجَةَ^(٢٢) القوم ، وأكْمِلَ بِهَهْجَةِ اليوم ، فعاج^(٢٣) بهم

(١) سماه هذا الاسم كناية عن أنه كثير الدرج والسعى في الطلب .

(٢) أراد أنه كثير الولوج والخروج في الشحاذة . (٣) الإفك الصراح :

الكذب الواضح . (٤) الهرير : متابعة الصباح . (٥) الإبرام : الإثقال .

(٦) السليطة : اللحاحة طويلة اللسان . (٧) شريطة بعليها : يريد أنها على وفق

زوجها . (٨) إلحاف : الإلحاح . (٩) الهراش : الخاصة .

(١٠) الصداق : المهر . (١١) الشلاق : الخلاة . (١٢) الصقاع : الخرقه تضعها

الشحاذة على رأسها . (١٣) الكراز : الكوز وقيل القارورة . (١٤) العيلة : الفقر .

(١٥) أبرم : أحكم . (١٦) الختن : الصهر . (١٧) الخطبة : بكسر الخاء طلب

التزويج . (١٨) النشار : الدراهم التي تثر في العقد . (١٩) الإيثار : التفضل واليذل .

(٢٠) الذلاذل : أسافل الثوب . (٢١) أراذله : يريد أنه يتقدم من معه من الأراذل .

(٢٢) عرجة : وقفة . (٢٣) عاج : مال .

إلى سباط زِينَتِهِ طُهُمَاتِهِ ، وتناصفت^(١) في الحسن جهاته ، فحين رَبَعَ^(٢) كلُّ شخص في رِبْضَتِهِ ، وطفق يَرْتَع^(٣) في روضته ، انْسَلَسَلْتُ من الصفِّ ، وفرتُ من الزَّحْفِ .

فحانت^(٤) من الشيخ لَفْسَةً^(٥) إلىَّ ، ونظرةٌ هجم بها طَرَفُهُ علىَّ ، فقال لي : إلى أين يا بَرَم ؟ هلا عاشرت معاشرَةً من فيه كَرَم ، فقلت : والذي خلقها^(٦) طباقاً ، وطَبَّقَهَا^(٧) إشراقاً ، لا ذقتُ لَمَاقاً^(٨) ، ولا لُسْتُ^(٩) رُفَاقاً ، أو^(١٠) تخبرني أين مَدَبُ صَبَاك ؟ ومن أين مَهْبُ صَبَاك^(١١) ؟ فتفنَّسَ الصُّعْدَاءَ مراراً ، وأرسل البكاءَ مِدْرَاراً^(١٢) ، حتى إذا استنزف الدَّمْعَ ، اسْتَنْصَتَ^(١٣) الجَمْعَ ، وقال لي : أرعني^(١٤) السَّمْعَ :

مَسْقَطُ الرَّأْسِ سَرَجٌ ^(١٥)	وبها كنتُ أموجٌ ^(١٦)
بلدةٌ يوجدُ فيها	كلُّ شيءٍ وبروجٌ ^(١٧)
ورْدُهَا من سلسيل ^(١٨)	وصحاريها مُرُوجٌ ^(١٩)
وبنوها ومغانيب	هم نَجُومٌ وبروجٌ
حَبْنَدَا نَفْحَةٌ رِيّاً	ها ومرآها البهيجُ
وأزاهيرُ رُبَاهَا	حين تنجأ ^(٢٠) الثلوجُ
من رآها قال : مَرَسَى	جَنَّةٍ الدُّنْيَا سَرُوجٌ

(١) تناصفت : تساوت .

(٢) ربع : جلس ، والريضة : مكان الجلوس . (٣) يرتع : يأكل .

(٤) حانت : اتفقت . (٥) يريد خلق السموات بعضها فوق بعض .

(٦) طبقها : ملأها . (٧) اللماق : القليل من الأكل والشرب . (٨) لست :

طعمت . (٩) أو هنا بمعنى إلا أن . (١٠) الصبا : ريح لينة . يريد من أين يجيثك .

(١١) مدراراً : غزيراً . (١٢) استنصت : طلب إفضات الجمع . (١٣) أرعني :

السمع : ألق إلى بسمعك . (١٤) سروج : بلد أبي زيد التي ينسب إليه . (١٥) أموج :

أضطرب وأتحرك . (١٦) يروج : يتيسر . (١٧) السلسيل : العذب البارد .

(١٨) المروج : البساتين . (١٩) تنجأ : تنزاح وتنفرد .

ولمن يتزاحُ عنها زَفَرَاتٌ ونَشِيحٌ ^(١)
 مثلُ ما لا قيتُ مُدْزَحُ زَحْنِي عنها العُلُوجُ ^(٢)
 عَبْرَةٌ تَهْمِي ^(٣) وشَجْوُ كلما قَرَّ ^(٤) يتهيج
 وهمومٌ كلَّ يوم خَطْبُهَا خَطْبُ مَرِيحٍ ^(٥)
 ومساعٍ في التَّرجِي ^(٦) قاصرات الخَطُوطِ عُوْجُ
 ليتَ يومي حُمٌ ^(٧) لما حُمٌ لى منها الخُروجُ

قال : فلما بَيَّنَّ بلده ، ووعيتُ ما أنشده ، أيقنتُ أنه علاءُمتنا أبو زيد ، وإن كان الهَرَمُ قد أوثقه بَقَيْدٍ ، فبادرتُ إلى مصافحته ، واغتنمتُ مُؤَاكَلَتَهُ ^(٨) من صَحْفَتِهِ ^(٩) . وظَلَمْتُ مدةً مقامِي بمصرَ أعشُو ^(١٠) إلى شُواظِهِ ^(١١) ، وأحشو صدقي ^(١٢) من دُرَرِ أَلْفَاظِهِ ، إلى أن نَعَبَ ^(١٣) بيننا غرابُ البَيْسِنِ ، ففارقته مفارقة الجَحْفَنِ للعَيْنِ .

وواضح أن المقامة كلها بنيت بناءً فَكِيهَةً ، ولا يكاد الإنسان يملك نفسه من الضحك حين يبدأ أبو زيد خطبة الزواج ، ويستهلها بما يشير إلى عَوَزِ العروسين ، ويأخذ في بيان ما حضَّ الشارِعَ عليه من الزكاة والصدقات . وما زال يذكر الفقراء وما لهم من حقوق على الأغنياء .

ثم ينتقل إلى الخطبة أو إلى الموضوع فيعرف أهل العروس بالعروس ويقلم لهم شحاذاً وقحاً يكثر من الهزير والصياح ، ويتحدث عن زوجته ، فإذا هي من طينته . ويذكر المهر ، وكله من أدوات القوم وآلاتهم . ولا يلبث أن يدعو

(١) النشيج . البكاء مع الصوت العالي .

(٢) العلوج : جمع عِلَج ، وهو الضخم من العجم والروم ، وهو يريد هنا الروم الذين استولوا على سروج في بعض حروبهم ، وكان ذلك في زمن الحريري مؤلف المقامة .

(٣) تهمي : تسيل غزيرة . (٤) قر : سكن . (٥) مريج .

مختلط لا يعرف وجه الخلاص منه . (٦) الترجي : الرجاء . (٧) حم : قضى وانتهى .

(٨) مؤاكلته : الأكل معه . (٩) صفحته : إناؤه الذي يأكل فيه . (١٠) أعشو :

أقصد . (١١) الشواظ : لهب النار . (١٢) صدقي : يريد أذني . (١٣) نعب : صاح . المقامة

لهم بزيادة النسل الذى ستربع فوق المصاطب ، مفتوح الأكف للشحاذة والسؤال .

ولا نشك فى أن هذا الأسلوب الفكه فى المقامات الحريرية كان أحد الأسباب المهمة فى ذيوعتها وإقبال الناس عليها فى عصره وبعد عصره ، لأنهم وجدوا فيها ما يسليهم ويرفئه عنهم ، ويعينهم على احتمال أعباء الحياة ، ويحطّ عنهم بعض أثقالها . ١

على أننا نلاحظ أن الحريرى لم يقصد بفكاهته إلى شىء من تقويم النفس وتربيتها ، وإنما قصد إلى الهزل والترفيه من حيث هما . ففكاهته فارغة من الفكرة ومن العمق والتحليل ، ومع ذلك فنحن نؤمن بذكائه وبقظة ذهنه وسرعة خاطره . ولا تظهر سرعة خاطره فى فكاهته وحدها ، بل تظهر أيضاً فى تدفق الألفاظ عليه ، وتدفق الأساليب والعبارات المنتقاة ، وكأنما نخمل كتب الأدب نخلا ، واصطفى لنفسه منها أروع ما وجدته فيها من صياغات ، وهى صياغات لا تتحول إليه حتى يشتد بريقها ولمعانها بفضل ما كان يصقل فيها ، بل بفضل ما كان يضيف إليها من حليات الصوت وتنميقات البديع .

والحريرى لا يبارى فى انتخاب ألفاظه واختيار كلماته ، ولذلك كانت مقاماته فى رأى السابقين أبدع ما أنتجته العصور الوسطى ، وقد ظلت لها مكانتها السامية ، وظلت الأعناق تمتد إليها فلا تطوؤها ، إذ انتهى صاحبها إلى ذروة سامقة من ذرى الفن العربى . ١

وقد اتخذها الأدباء من عصره إلى عصرنا قبلتهم وكعبتهم ، فهم ينهلون منها ، وهم يوقرونها ويجلّونها ، ويرون فيها آية الأدب الرفيع . ولم يكتف الحريرى فيها بأساليب النثر المنمقة ، بل ذهب يوشىها أيضاً بأساليب الشعر ، فلأها بالأبيات والمقطوعات ، التى تلمع وتتألق فى صحفها ، وقد بسّ فيها كثيراً من الحكم والنصائح التى تهدى فى دياجير الحياة .

وهذا كله هو الذى يستر صعوبات المقامة عنده ، فما جاء به من ألعاب بلاغية ، وشعوزات لغوية أو فقهية أو نحوية أو أَلغاز ومعمِّيات ، كل ذلك تغمره أساليبه المنمقة البهيجة ، فلا يشلّ الحركة عنده . بل لا نزال حتى عصرنا نتملّى بجمال ألفاظه وصياغاته ، كما كان يتملى بها معاصروه ومن جاءوا بعده ، ولا نزال نعلها أجمل ميراث لغوى ورثناه عن كُتّابنا السالفين .

مقامات مختلفة

١

على مر التاريخ

ليس الحريرىّ أول من حاول تقليد بديع الزمان في صنُّع المقامة ، فمن قبله حاول ذلك أبو نصر عبد العزيز بن عمر السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ وأبو القاسم عبد الله بن محمد بن نايقا المتوفى سنة ٤٨٥ .

وطُبعت لابن نايقا تسع مقامات ، ومن يقرأها يراه يتخذ بطلها شخصاً يسميه الإشكرى ، أما الرواة فتعددون . وهى تدور فى أكثرها على الكُدْية ، ولكن ليس فيها جمال اللفظ الذى نجده عند البديع أو عند الحريرىّ ، ولعلها من أجل ذلك لم تشتهر فى الناس .

وكأن القدر اذخر الحريرىّ لينهض بهذا الفن إلى القمة التى كانت تنتظره ، بحيث إننا لا نجد بعده من استطاع أن يخلِّق معه فى الأفق الذى صعد إليه ، فقد ظهر دائماً وبرز للعيان أن أجنحة الأدباء الذين حاولوا تقليده لم تكن من القوة والمتانة بحيث يستطيع أصحابها أن يرتفعوا إلى الأجواء العليا التى دوّم فيها وسبّح فى طبقاتها .

وربما كان أول من حاول تقليده فى إصرار هو أبو الطاهر محمد بن يوسف السَّرْقَسْطى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ، فقد اطلع على مقاماته ، فأنشأ خمسين مقامة معارضة لها أتعب فيها خاطره ، وكدّ ذهنه وأسهر ناظره ، وصعب على نفسه المسالك فيها ، فالتزم فى نثرها ونظمها ما لا يلزم من تعدد القوافى واشترائط أن تكون من حرفين فأكثر . واتخذ راويته فيها المنذر بن حمام وجعل بطلها السائب ابن تمام . وسقطت هذه المقامات من يد الزمن فلم تصل إلينا .

وفى نفس التاريخ نجد الزمخشري يؤلف مقامات تدور كلها على الوعظ ، وليس فيها راو ، ولا بطل ، بل يبدوها بخطاب نفسه ، وما يزال يعظ مذكراً بالآخرة ، رادعاً النفس عن شهواتها ، خاصاً لها أن تسلك السبيل السوى الذى يؤدى بها إلى الفوز بنعيم الله ورضوانه . ويبدو أنه لم يكن فى ذهنه أن يقلد مقامات الحريري ، فقد كان يقول :

أَقْسِمُ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَمَشَعَرَ الْحَجِّ وَمِيقَاتِهِ
إِنَ الْحَرِيرِيَّ حَرِيٌّ بَأَن نَكْتُبَ بِالتَّبِيرِ مَقَامَاتِهِ

وكل ما فى المسألة أنه استعار منه الاسم ليطبقه على مجموعة من المواعظ . ونتقدم فى القرن السادس فنجد الحسن بن صافى المصرى الملقب بملك النحاة يُصَنِّف مقامات على نسق المقامات الحريرية ، ويصنع صنيعه أبو العباس يحيى بن سعيد بن مارى النصرانى الطبيب . واشتهرت مقاماته باسم المقامات المسيحية ، قال ياقوت فى معجمه : إنه أجاد فيها . وفى نهاية القرن نجد ابن الجوزى يؤلف خمسين مقامة فى موضوعات أدبية مختلفة ، ويسمى بها نحو الوعظ على نحو ما سعى الزمخشري فى مقاماته ، وكان يعاصره أبو العلاء أحمد ابن أبى بكر بن أحمد الرازى الحنفى الذى ألف ثلاثين مقامة طُبعت فى إستانبول مع مقامات ابن نايقا فى مجلد واحد ، ونراه يقول فى مقدمتها إنه ألفها لقاضى القضاة أبى حامد محمد بن محمد بن القاسم الشَّهْرُزُورِي ، وإنه سيحتذى فيها على مثال بديع الزمان والحريريّ وسَمَّى راويتها الفارس بن بسّام المصرى وبطلها أبا عمرو التنوخى . ونراه يقلد الحريريّ فى بعض ألعابه الأدبية كأن ينظم شعراً كلُّ ألفاظه من ذوات الشين أو الصاد أو العين ، أو ينظم مقامة كل ألفاظها من ذوات الطاء . وقد يجعل المقامة فى وصف حمّام أو محبرة أو دواة أو قلم أو فرس أو معركة . وهو فى ذلك كله يثقل على النفس والأذن بما يستخدم أحياناً من كلمات نابية أو موهلة فى الغرابة .

ونمضى فى القرون التالية للقرن السادس فتكثر المقامات ، ويكثر المقلدون ،

ويتسع الموضوع الذى تخوض فيه ، فقد يكون الحديث والفقه والنحو كما فى مقامات ابن الصبقل الجَزَرى المتوفى سنة ٧٠١ هـ وعدتها خمسون ، نسب روايتها إلى القاسم بن جريرال الدمشقى وحوادثها إلى أبى نصر المصرى . وقد يكون الموضوع وصف الحيوانات مثل مقامات ابن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٧٧٩ وقد يكون وصف البلدان مثل مقامات ابن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ .

وربما كانت مقامات السيوطى المتوفى سنة ٩١١ أشهر المقامات التى صنف فى العصور الوسطى المتأخرة ، وهى أشبه ما تكون بالرسائل ، فليس فيها بطل ولا راو ، إنما هى رسائل مسجوعة ، قد تتحدث فى موضوع خيالى مثل أنواع الطيب وفوائد كل نوع ومفائده ، وأنواع الرياحين والزهور ودفاع كل نوع عن نفسه . وقد تتحدث فى موضوع جدلى مما يتناقش فيه الفقهاء مثل أبوى الرسول وحكمهما فى البعث والجزاء ، ومثل صوفية ابن الفارض وما اتهمه به خصومه . وقد تتحدث فى موضوع اجتماعى كالرخاء والغلاء . وهى بهذه الصورة أبحاث مسجوعة . وقد ملأها السيوطى بالحديث النبوى وبالمعلومات من جميع الفنون طبية وغير طبية . وما تزال اللغة العربية تستقبل هذه الألوان المختلفة من المقامات حتى يخرج العصر الحديث ، فيحاول غير واحد تقليد الحريرى ، ومن أشهر من قلده فى القرن الماضى الشيخ حسن العطار فى مصر والألوسى فى العراق وفارس الشدياق وناصرى اليازجى فى الشام .

ويجب أن نعرف أن تأثير الحريرى لا يقف عند من قلده فى تأليف المقامات بل يمتد إلى كثيرين من الكتّاب ، ممن قلده فى طريقته . ولعل هذا التأثير الثانى أعمق من التأثير الأول ، لأنه يشيع فى أعمال أدبية مختلفة . ويكفى أن نذكر أن كتّاب العرب المحدثين ممن نسمع بهم فى القرن الماضى وأوائل هذا القرن طبعوا جميعاً أساليبهم بطوابعه . وما « ليالى سطيح » لحافظ إبراهيم و « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحى إلا ثمرة من ثمار تقليد الحريرى والضرب على نمودجه فى الأسلوب والصياغة .

مقامة اليازجي

إنما نقف عند هذه المقامة لأن صاحبها نال بها قَصَبَ السبق لا بين معاصريه حسب ، بل بين كل من جاءوا بعد الحريري ، إذ عرف كيف يقلده ، وكيف يُحكم هذا التقليد ويضبطه ضبطاً دقيقاً .

وقد ولد ناصيف اليازجي سنة ١٨٠٠ م لأب طبيب على مذهب العرب في الطب ، وكان كاثوليكيّاً يقيم بكفر شيا في لبنان بالقرب من بيروت . وعهِدَ إلى أحد القساوسة في القيام على تربية ابنه ، وعكف ناصيف على المكتبات في الأديار فنهل منها ما استطاع .

وكان فيه ذكاء والمعية ، فلم يلبث أن نبغ في الشعر ، وعلى عادة عصره كتب قصيدة في مديح الوالي ، وهو الأمير بشير الشهابي ، ووفد عليه ، وألقاها بين يديه فأعجب به ، ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى ألحقه بديوانه . فمكث فيه حتى عزل الأمير سنة ١٨٤٠ .

وحينئذ نراه ينزل في بيروت ، ويعرّف فضله ، فتناديه المدارس المختلفة للعمل بها كما تنتدبه الكلية الأمريكية ، ويراجع الترجمة التي نشرتها للكتاب المقدس . وما يزال عاكفاً على التدريس من جهة والتأليف من جهة ثانية حتى يلبي نداء ربه سنة ١٨٧١ .

ومن يرجع إلى مؤلفاته يقف على مدى ثقافته ونوعها إذ يراه يؤلف في النحو مختصراً أسماه « طوق الحمامة » ، كما يؤلف أرجوزة قصيرة أسماها « الباب في أصول الإعراب » وأرجوزة طويلة أسماها « جوف الفـرا » ، وكتب عليها شرحاً أسماه « نار الفـرا في شرح جوف الفـرا » . ويراه يؤلف في الصرف أرجوزة قصيرة أسماها « لمحّة الطرف في أصول الصرف » وأرجوزة طويلة أسماها « الخزنة » وكتب

لها شرحاً أسماه « الجُمانة في شرح الخزانة » . ويؤلف في الفنين معاً « الجوهر الفرد » ، وفصل الخطاب في أصول لغة الإعراب » . ويؤلف في العروض « الجامعة » وهي أرجوزة تتناول مصطلحاته ، وشرحها بما أسماه « اللامعة في شرح الجامعة » ، ويؤلف في علوم البلاغة « عقد الجمان » ، والطراز المعلم » كما يؤلف في الطب أرجوزة أسماها « الحَجَر الكريم في الطب القديم » .

وإنما ذكرنا هذا كله لندل على أن ناصيف ثَقِيفَ العلم العربي كما كان يفهم في عصره وقبل عصره ، فهو قد ألمَّ إلماماً دقيقاً بكل المعارف العربية ، ولم يكتف بذلك ، بل أَلَفَ فيها على طريقة القدماء مختصرات وأراجيز وشرحاً . ولما نشر المستشرق الفَرَنْسِي « سلفستر دى ساسي » مقامات الحريري أرسل له رسالة طويلة ذكر له فيها أغلاطه في نشرته . وحظيت هذه الرسالة بتقدير الناشر وغيره من المستشرقين ، وترجمت إلى اللغة اللاتينية .

فنحن إذن بإزاء شخصية طريفة آمنت بالثقافة العربية . ولم يفكر ناصيف في أن يتقن لغة من اللغات الأجنبية ، ولعله كان يحتقر هذه اللغات ، ويرى اللغة العربية كافية في ثقافة الأديب وتخريجه مثلاً رفيعاً من أمثلة الفن .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم موقفه وحياته في عصره ، فهو قانع بالعرب وثقافتهم ، وهو ابن بار بهم ، وبار بلغتهم ، لا يكاد يتصور فوقها لغة ، فهي أفضل اللغات ، وأدبها أفضل الآداب .

ونظر ، فوجد خير النماذج الأدبية فيها الشعر والمقامات ، فكتب غير قليل من الشعر ، ثم خلاص للمقامة ، فقرأ لمقامات الحريري ، وما استحدثه الأدباء من بعده ، وما زال يكُدُّ ذهنه حتى صاغ مقامتهم . وأسماها « مجمع البحرين » أخذنا من الآية الكريمة في القرآن : (وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح ، حتى أبلغ مجمع البحرين) ويريد بالبحرين النظم والنثر .

ولم يكتب خمسين مقامة فقط كما كتب الحريري ، بل زاد عليه عشراً ، واتخذ راوية هوسهيل بن عباد وبطلا هو ميمون بن خزام ، وهو أديب

شحنّاذ من نوع أبى زيد السَّرُوجيّ وأبى الفتح الإسكندري . وألصق به فى كثير من المقامات ابنته « ليلى » وغلامه « رَجَباً » على نحو ما صنع الحريرى بأبى زيد إذ عرضه فى كثير من مقاماته ، وهو يتشاجر مع زوجته أو مع تلميذه وتابعه . وقدّم لعمله بمقدمة ، اعترف فيها متواضعاً بِقِصَرِ باعه عن الحريرى وبديع الزمان ، وسمّى صنيعه ضرباً من الفضول . ثم انساب بين مقاماته مرقماً لها على نحو ما رَقَمَ الحريرى ، ومتخذاً لها أسماء من البلدان غالباً ، واشترك معه فى غير اسم . ونفس الصورة التى عُرِضَ فيها ميمون تكاد تكون بذاتها صورة أبى زيد فأحبايل الأخير ومكايده وطرق تنكُّره ، كل ذلك يطبّق تطبيقاً على ميمون .

ونراه فى المقامة الأولى يعرف بين الراوى والبطل ، بالضبط كما حاول الحريرى فى مقامته الأولى . فسهيل بن عباد يملّ الحضر ويميل إلى السفر ، ويمتطى ناقه ، وما يزال يضرب فى الفلاة حتى يهجم الليل ، فيرى ناراً مشبوبة وخيمة مضروبة فيميل إليها وينادى مَنْ القوم ؟ ويجيبه شخص :

إنى ميمونُ بنى الحِزامِ وهذه ليلى ابنتى أُمّامى
نعم وهذا رجبٌ غلامى من رام أن يدخل فى ذمامى
يأمنُ منْ بوائق الأيام

ويتم التعارف بينهما . ثم تكون المقامات بعد ذلك ، ويتردّد اللقاء والفراق بين الراوى والبطل حتى نصل إلى المقامة التاسعة والخمسين ، وهى المقامة المكية ، وهناك بين المناسك والمشاعر يرى سهيل بن عباد ميموناً وابنته وغلامه ، ويصحبه إلى زيارة المدينة ، ويلاحظ عليه شيئاً من التغير ، إذ يراه يخطب فى الناس واعظاً منذراً ، صادقاً فى إنذاره ووعظه . ويختم ميمون خطبته بهذا الدعاء : « اللهم يا سابغ الآلاء ، ونايغ الإيلاء^(١) ، هبْ لنا قلوباً طاهرة ، وعيوناً ساهرة ، وأنفُساً عفيفة ، وأنسناً حَصِيْفَةً ، وأخلاقاً سليمة ، ونيّات مستقيمة ،

وَيَسِّرْ لَنَا تَوْبَةً صَادِقَةً ، وَنَدَامَةً خَازِقَةً . وَسِيرَةً هَادِيَةً ، وَعِيشَةً رَاضِيَةً ، وَعَاقِبَةً حَمِيدَةً ، وَخَاتِمَةً سَعِيدَةً . . . » .

وواضح أنه في هذا الدعاء يطلب التوبة من ربه ، ويندم على ما قَدَّمَ من ذنبه . وبذلك يُعَدُّنا اليازجيَّ للإشراف على الحلقة الأخيرة من مقاماته . وفي المقامة التالية الستين ، وهي المقامة القدسية ، يلتقي سهيل بن عباد بصاحبه في المسجد الأقصى ، والناس قد تجمَّعوا عليه ، وهو يعظهم ويحذرهم عذاب النار ، وسوء عِقْبَى الدار . وينظر إلى راويته ، فيذكر ما ارتكب من الأوزار ويتوب إلى الله توبةً نصوحاً ويخفى عن الأبصار . حتى إذا جَنَّ الليل سمعه سهيل ينشد :

قم في الدُّجَى يا أيها المتعبَّدُ	حتى متى فوق الأسرةِ تَرَقُدُ
قم وادع مولاك الذى خلق الدجى	والصبحَ وامض فقد دعاك المسجدُ
واستغفر اللهَ العظمَ بذلَّةَ	واطلبْ رضاه فإنه لا يحقِّدُ
واندمَ على ما فات وانْدُبْ ماضى	بالأَمْسِ واذكُرْ ما يجيء به العَدُ
واضرعَ وقل : يا ربَّ عفوك إنسى	من دون عفوك أيس لى ما يعصُدُ

ويستمر في الدعاء والتضرع لربه لا يَفْتُر ولا يَمَلِّ ، فيعلم سهيل أنه قد تحول عن حاله ، ويلزمه شهراً ثم يودعه . وكان ذلك آخر عهدهما باللقاء .

ولعل القارئ قد لاحظ أن اليازجيَّ في هذا كله يحاكي الحريريَّ ، فهو يبدأ مثله بالتعريف بين الراوى والبطل في المقامة الأولى ، وما يزال يتيح الفرصة للقائهما ، حتى يتجرد البطل عن عَرَض الدنيا ، ويندم على فعله ، ويتوب إلى ربه . ونفس التواضع الذى نلقاه عنده في فاتحة مقاماته وخاتمتها إنما يقلد فيه الحريرى تقليداً واضحاً .

خصائص وصفات في المقامة اليازجية

لا نبالغ إذا قلنا إن مقامة اليازجي تقليد دقيق لمقامة الحريري ، فهي تطابقها من جميع الوجوه ، تطابقها في صورة الراوى والبطل ، وتطابقها في أن البطل أديب متسول ، وتطابقها في أساليب تنكره وخصوماته مع ابنته وغلामه ، وما يكون هناك من قاض ينظر في الخصومات .

وتطابقها أيضاً في الصياغة ، فهي تدور بين السجع والشعر ، وإن كنا نلاحظ أن الحريري يتفوق في الطرفين جميعاً ، فسجعه أخف ، وشعره أرشق ، وكأن المادة اللغوية دُلَّتْ له بأقوى وأروع مما دُلَّتْ لليازجي ، على الرغم من أنه حاول أن يكون صورة منه .

ولسنا نريد أن نرى على عمل اليازجي ، ولا أن نقول إنه كان صورة سيئة للحريري ، فلهل لغتنا لم تعرف مقلداً لعمل فني مهر في تقليده وبلغ منه كل ما أراده على نحو ما عرفت ذلك عند صاحبنا ، فقد عرف كيف يصوغ نموذجاً على نموذج الحريري ، ويظفر لنفسه بجملة الخصائص والصفات الحريرية . حتى القرآن الكريم الذي اقتبس الحريري منه اقتباساً واسعاً جاراه فيه اليازجي ، وربما تفوق عليه في كثرة ما اقتبس منه بل إن اسم مقاماته استعاره كما مرّ بنا من لفظ القرآن . وقد جعل بطله يتوب في مكة ثم في المدينة والمسجد الأقصى .

وكان اليازجي يتخلّى عن كل شيء فيه ليصنع المقامة بالذوق الحريري وعلى السنن التي وضعها لها . حتى عصره لا نجد له أي صدّى في مقامته ، وكذلك البلدان التي اقترحها لها أسماء لا نجد لها أثر في عمله ، فليكن اسم المقامة الشامية أو المصرية أو اللبنانية . فهذا الاسم لا يعنى عنده شيئاً ، إنما هو

بصدد صورة أدبية عامة يعرضها ، وتصادف أن الحريرى وبديع الزمان من قبله سميا مقاميهما باسم البلدان ، فاستنّ سنتهما واتبع قاعدتهما .

وبنى الحريرى كثيراً من مقاماته على المواعظ والأدعية فتبعه اليازجى فى غير مقامة يعظ ويذكر ، ويدعو الناس إلى العمل الصالح ، ورفض الدنيا ومتاعها ، وانتظار ما عند الله وثوابه ، والأمل فى جنته ورضوانه . يقول فى المقامة المعربة على لسان ميمون ، وقد وقف بين الجماهير خطيباً :

« اعلّموا أن الله قد أرسلنى إليكم نذيراً ، وأقامنى بينكم سراجاً منيراً ، لأذكركم يوماً عبوساً قمططريراً^(١) ، فلا تغفلوا عن ذكر شرب تلك الكاس ، وهول ذلك اليوم المجموع له الناس ، واتعظوا بمن تقدمكم من القرون والأقوان ، ومن درج أمامكم من العيون والأعيان ، وتوبوا إلى بارئكم واندموا على ما فات ، فإن الله يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ، واعتمدوا حفظ الفروض والسنة ، ولا تسكّروا على خضراء الدمن^(٢) ، فإن المحافظة على الصلوات ، لا تفيد من يستبج الشهوات فى الخلوات ، ومكابدة الصوم ، لا تنفع من يؤذى القوم ، وتجشّم الحنج والعصرة^(٣) ، لا يترك شارب الحمرة ، فليس البير أن تولوا وجوهكم شطّط المسجد الحرام ، ولكن البير من اتقى ، والسلام . »

وواضح فى هذه القطعة كثرة ما استعاره اليازجى من القرآن الكريم ، ولم يحاول أن يستعير عباراته فقط ، بل حاول أن يجعل ألفاظه قراراً لصياغاته . وهو فى هذا كله إنما ينسج على منوال الحريرى ، وقد ذهب يكثر مثله من الأمثال والحكم ، بل حاول أن يتفوق عليه فى هذا الجانب ، فنشره فى عمله بأوسع مما نشره صاحبه ، وجعله موضوعاً لبعض مقاماته كما فى المقامة الحكيمية والأدبية . ويظهر أنه أعجب إعجاباً شديداً بألعاب الحريرى البلاغية التى تحدثنا

(١) قطريراً : شديداً . (٢) خضراء الدمن : ما يخضر فى المنبت السرى من النبات ، وهو مثل ، أى لا تنفروا بما قد يزهر فى التربة الحبيشة ، كناية عن زخارف الدنيا . (٣) العصرة : الحج الأصفر .

عنها آنفًا ، فاحتذى على طريقته فيها ، وصبَّ على قوالبه . والمقامتان :
الخامسة عشرة والعشرون هما المسرح الذى اختاره اليازجى ليظهر عليه هذه
الألعاب السحرية . أما المقامة الأولى فأودعها قصيدة كل أبياتها عاطلة من
النقط ، وثانية كل أبياتها منقوطة ، أو بعبارة أدق كل حروف أبياتها حالية
بالنقط . وليس هذا حسب ، فقد أنشد قصيدة الشطر الأول منها خالٍ من
النقط والثانى حال به من مثل :

لا لعهود الودِّ راعٍ ولا فى شَجَنٍ ذى فتنة يُشْفِقُ

فحروف الشطر الأول كلها مهملة من النقط ، وحروف الشطر الثانى كلها
معجمة ، وهكذا بقية القصيدة . ولم يكتف بذلك ، بل ذهب ينظم أبياتاً تتألف
على الترتيب من كلمة معجمة وأخرى مهملة من مثل :

لا تَنفَى العهدَ فَتَشْفِينِي ولا تُسْجِرُ الوعدَ فَتُشْفِي الْعِلَالَا

ثم أتبعها أبياتاً تتألف كلماتها من حروف تتعاقب بين الإهمال والإعجام .
وكأنما أحسَّ أنه لا يزال فى حدود الألعاب الحريرية ، وهو يريد أن يثبت
مهارته ، فابتكر نوعاً سماه عاطل العاطل . وفيه اشترط على نفسه أن لا تكون
الحروف التى تتكوّن منها الأبيات مهملة فقط ، بل يكون مسمى الحرف حين
ننطق به خالياً من النقط أيضاً ، فالحرف « دال » ينطبق عليه الشرط بخلاف
حرف « عين » . وعلى هذا القيد نظم قطعة من هذا النمط :

وله صَوْلٌ وطَوْلٌ وله صَدٌّ ورَدٌّ

وكل ذلك ليبرهن على مقدرة الفنية ، وأنه لا يقل عن الحريريّ افتناناً ولعباً
بالألعاب والعقول :

وأما المقامة العشرون فأودعها لعبة مالا يستحيل بالانعكاس ، تلك اللعبة
التي ابتدعها الحريريّ ، والتي راعت معاصريه ومن جاءوا بعده حتى عصر
اليازجى ، وهى تجرى على هذا المثال :

قمرٌ يُفَرِّطُ عَمْدًا مُشْرِقٌ رَشٌّ ماءٌ دمعٌ طَرَفٌ يَرْمُقُ
إِذْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقْرَأَ الْبَيْتَ مِنْ آخِرِهِ كَمَا تَقْرَأُهُ مِنْ أَوَّلِهِ ، فَلَا تَخْتَلِفُ
[الألفاظ ولا يختلف المعنى . وكأن اليازجى أحس أنه مسبوق بهذه اللعبة الحريرية ،
فرأى أن يضيف إليها شيئاً ، وإذا هو يصل فى بيتين يؤلفهما إلى أنهما إن قرأا
مستقيمين كانا مدحاً على هذا النحو :

باهى المراحم ، لايسٌ كَرَمًا ، قديرٌ مُسْنِدٌ
بابٌ لكل مؤمِّلٍ غُنْمٌ لعمرك مُرْفِدٌ
فإن أنت عكستهما وقرأتهما من آخرهما إلى أولهما أصبحتا هجاء وذمًا على
هذه الشاكلة :

دَنَسٌ مَرِيدٌ (١) قَامِرٌ (٢) كَسَبَ الحَارِمَ لَا يَهَابُ
دَفِيرٌ (٣) مِكْرٌ مُعَلَّمٌ (٤) نَغِيلٌ (٥) مُؤَمِّلٌ كُلٌّ بَابٌ (٦)
وكرر هذه اللعبة فى المقامة الرجبية . واستطاع أن يصل إليها فى المقامة
التغلبية عن طريق آخر هو أن تقرأ كلمات قطعة مديح مصحفة فإذا هى
هجاء . مثلاً هذا البيت :

لَا تُعْرِفُ الْأَقْدَارُ فِيهِمُ وَالرَّيْبُ وَلَا يِبَالُونَ بِالْحَرَّازِ النَّسَبُ (٧)
يُصَحِّفُ وَيَحَرِّفُ ، فَإِذَا هُوَ عَلَى هَذَا النَحْوِ :
لَا تُعْرِفُ الْأَقْدَارُ فِيهِمُ وَالرُّتَبُ وَلَا يِبَالُونَ بِأَحْرَازِ النَّسَبِ
وليس من ريب فى أن اليازجى كان فطناً منتهى الفطنة ، وإلا ما استطاع
أن يصل إلى مثل هذه اللعب التى كان يستطيع أن يخرجها من صندوقه اللغوى
كلما ابتغى ذلك أو أرادها .

(١) مرید : عانى . (٢) قامر : مقامر . (٣) دفر : دنس .
(٤) مكر : محارب . (٥) معلم : عليه سمة الحرب أى أنه يريد الشر دائماً .
(٦) نغل : فاسد . (٧) النشب : المال .

وقد رأى الحريريَّ يعتمد إلى الألغاز في بعض مقاماته ، فحاكاه أيضاً في هذا الجانب ، وعرضه مرة أو قل مرتين شعراً ، ومرة أخرى نثراً . أما الشعر ففي المقامة اللغزية والمقامة الحلبية . ومن ذلك هذا اللغز في القمر :

ومولودٌ بدون أبٍ وأمٍّ بلا قوتٍ يعيشُ ولا يموتُ
له وجهٌ وليس له لسانٌ فيُخبرنا ويلزمه السكوتُ

وأما الألغاز النثرية فنثرها في المقامة الحمويّة ، وقد أظهر فيها تفنّناً ومهارة . ونظر فوجد الحريريَّ يخصص النحو والفقه بثلاث مقامات ، فعرض لمسائل فقهية في مقامته الإسكندرية ، ولكن في قلة ، وأشرك معها مسائل لغوية وبلاغية ، أما النحو فأثبت ، وهو المؤلف النحوي الكبير صاحب الأراجيز القصيرة والطويلة فيه ، أنه يبذل الحريريَّ في التصنع له والتكلف لجمع مشاكله وطرحها ، تارة في صُور عبارات تقرأ بعض الكلمات فيها بجميع الحركات الثلاث كما في المقامة البغدادية ، وتارة بعرض أسئلة مختلفة كما في المقامة الكوفية والبحرية والسودانية . وعنى في المقامة الدمشقية بأن يرينا مقدّراته على نظم قواعد النحو ، فأشدّ فيها أرجوزة طويلة .

ولعل القارئ قد لاحظ أنه بالغ ، وشقّ على نفسه بعرض كل ذلك في مقاماته ، وكان حريّاً به أن ينسحب إلى الشلالات أو قل هذه العوائق عن طريقه ، ولكنه ظنها تحفة الفن ، فاعتنقها وبالغ في استخدامها حتى لتصبح بعض مقاماته كأنها متون لبعض العلوم .

وليس علم النحو وحده هو الذي ظفر منه بهذه المبالغة ، فربما كان علم اللغة يتفوق عليه إذ خصّ "اليازجي" به اثنتي عشرة مقامة ، نظم فيها كثيراً من الأسماء الخاصة ببعض الموضوعات ، وهي أسماء تفيدنا في معرفة معلومات كثيرة عن العرب وحياتهم قبل الإسلام وبعده . ونضرب لذلك مثالا المقامة السادسة ، وهي المسماة بالخزرجية ، فإننا نجد فيها ميمون بن خزام يُسأل عن أسماء المطاعم ، | فيجيب :

لِلنَّفَسَاءِ الْحَرُسِ^(١) وَالْعَقِيْقَةُ^(٢) لِلطِّفْلِ^(٣) عِنْدَ عَارِفِ الْحَقِيْقَةِ
كَذَلِكَ الْإِعْذَارُ لِلخَيْتَانِ وَاللَّخْطَبَةُ الْمَلَاكُ^(٤) وَالْوَلِيْمَةُ
وَاللِّبْنَاءُ جَعَلُوا الْوَكِيْرَةَ وَقِيلَ تَحْفَةُ لَزَائِرٍ يَرْدُ
كَذَا نَفِيْعَةُ الْقُدُومِ مِنْ سَفَرٍ وَحَيْثَا لَمْ يَكْ مِنْ ذَاكَ سَبَبٌ
وَإِنْ تَعَمَّ دَعْوَةٌ فَالْجَفَلَى تَدْعَى وَإِنْ خَصَّتْ فَتَلْكَ النَّقَرَى

وواضح أنه لم يترك اسماً لطعام يتخذ في مناسبة إلا حشده في هذه الأبيات،
ويُسألُ ميمون عن نيران العرب ، فينشد :

أَوَّلُ نَارٍ عِنْدَهُمْ نَارُ الْقِرَى^(٥) وَذَكَرْنَا الْوَسْمَ^(٦) بَعْدَهَا جَرَى
وَنَارُ الْإِسْتِسْقَاءِ^(٧) وَالتَّحَالِفِ وَالصَّيْدِ وَالْحَرْبِ لَدَى التَّزَاوِفِ
وَنَارُ غَدَرٍ وَسَلَامَةٍ تَعْدُ وَنَارُ رَاحِلٍ كَذَا نَارِ الْأَسَدِ^(٨)
وَالنَّارُ لِلْسَّلَامِ^(٩) وَالْفِدَاءِ فِجْمَلَةُ النَّيْرَانِ هُوْلَاءُ

وهذا إحصاء دقيق لنيران العرب ، فلم يترك ميمون ناراً إلا أحصاها . ويسأل
عن ساعات النهار ، فيقول :

أَوَّلُ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ هِيَ الْبُكُورُ وَالْبَزُورُ طَارِ^(١٠)
وَالرَّأْدُ وَالضُّحَى الْمُتَوَعُّدُ ظَهِيْرَةٌ ثُمَّ الزَّوَالُ عَدَّوْا

(١) الحرس : طعام الولادة . (٢) كانوا يعدون العقيقة عند خلق شعره .

(٣) الخذاق : اسم الطعام الذي كانوا يصنعونه حين يتم الطفل حفظ القرآن .

(٤) القرى : الضيافة . (٥) الوسم : هي النار التي توقد ليحموا بها الميسم الذي

يسمون به الإبل . (٦) الاستسقاء : دعاء وصلاة يقوم بها المسلمون حين يغيب عنهم المطر .

(٧) نار الأسد : نار توقد له حتى ينفر ويفر . (٨) السليم : الملدوغ .

(٩) يقال إن العرب كانوا يضيئون هذه النار إذا سبيت نساء منهم . (١٠) طار : حدث .

فالعصرُ فالأصيلُ ثم الطَّفَلُ وبالحدُور والغروب تكمل
ويُسأل عن ساعات الليل ، فينشد :

أول ساعة من الليل الشَّفَقُ وبعدها العَشَوَةُ يتلونها الغسقُ
فهذه أةٌ تُنَمَّتْ شَرَعٌ ثم قُلُ جُنُحٌ وَزُلْفَةٌ هزيعٌ يارجلُ
وبعد ذلك غَبَشٌ وَسَحَرٌ والفجرُ والصبح الذي ينفجرُ

وكأنما كان اليازجي معجماً حياً ، فهو حافظ لغرائب اللغة وشواردها ، بل
إن اللغة قد توزعت عنده على أثبات ، في كل ثبَت مجموعة منها . وانظر إلى
ميدون يُسأل عن رياح الجهات فيجيب :

ما هبَّ من شَرْقٍ فذلك الصَّبَا ثم الجَنُوب عن يمينٍ ذهبا
ثم الشَّمَال والدُّبُور وجَرَّتْ نَكَبَاءُ بين كل ريحين سَرَتْ
فذلك الأَزِيبُ ثم الصَّابِيَةُ فالهَيْفُ ثم الجَرِيَاءُ آتِيَةٌ (١)

ويعجب السائل ، ويقول له : قد جلوت الرموز ، وفتحت الكنوز ، فهل
تعرف أيام بَرْد العجوز ، فينشد :

صَنٌ وَصَنَبَرٌ وَوَبَرٌ يَنْدُكُرُ وبعده الآمِرُ والمؤَمِّرُ
كذا معلَلٌ ومُطَفِّي الجَمَرِ هاتيك أيام العجوز فادِرُ
فيقول السائل : حُيِّتْ يا قُطْبَ العراق ! فما أسماء خيل السباق ؟ فيجيبه :
أولُ سابق هو المُجَلَّتِي ثم المُصَلَّتِي بعده المُسَلَّتِي
تال ومرتاحٌ عليه يقبلُ والعاطفُ الحَظِي والمُؤَمِّلُ
كذلك اللطيمُ والسُكَيْتُ فاحفظ فما أُعْطِيَتْ قَدْ أُعْطِيَتْ

وهكذا تنتظم المقامة الخزرجية كل هذه المسائل اللغوية ، وكأنه لا يريد
بمقامته أن يعلم التلميذ الأسلوب الأدبي حسب ، بل هو يقصد قصداً إلى تعليمه

(١) يشير في البيت إلى أن الأزيب : ريح بين الصبا والجنوب ، أما الصابية فبين الصبا
والشمال ، وأما الهيف فبين الجنوب والدبور ، وأما الجرياء فبين الشمال والدبور .

اللغة وعويصتها وما لا يعرفه إلا خاصة الخاصة . . وليست المقامة الثالثة عشرة بأقل حشداً من هذه المقامة الخرجية لمسائل اللغة ، وقد بدأ فيها بنظم مشاهير العرب الذين، تُرسل بهم الأمثال من مثل السموعل ووفائه وحاتم وجوده ومعن بن زائدة وحلمه وقس وفصاحته ، ثم ينتقل فينظم مشاهير الخليل عندهم على هذه الشاكلة :

أشهرُ خَيْلِ العرب المشهَرُ ثم النعمةُ التي لا تنكسرُ
وداحسٌ منهمن والغبراءُ كذلك الخطارُ والحنفاءُ
وأعوجٌ ولاحقٌ سَكابُ كذلك العُبَيْدُ والعُقَابُ
كذا العَصَا وأمثها العُصَيَّةُ وكم لهم أمتاً وكم بُنْيَّةُ

وكل فرَس من هذه الأفراس كانت ملكاً لبطل أو شيخ من شيوخ العرب أو ملك من ملوكهم ، واستقصاها اليازجي استقصاء . ولم يلبث أن أنشد أبيات العرب من مثل الحِباء والخيمة والفسطاط ، كما أنشد ألوان طعامهم وأسماء آتيتهم . ولم يكتف بذلك ، فقد أنشد أيضاً أزلام الميسر وهي القداح التي كانوا يتخذونها للقمار ، يقول :

فَدَتْ وَتَوَّأَمَ رَقِيبُ نَافَسُ وَالْحِلْسُ وَالرَّابِعُ قِيلُ الْخَامِسُ
كذلك المُسْبِلُ والمُعَلَّى مما على النصيب قد تولى
ثم السَّفِيحُ والسَّفِيحُ الوَغْدُ ليس لها إلى النصيب رُشْدُ

ومعروف أنها عشرة قداح وقد أسماها كلها ، وأشار إلى أن الثلاثة الأخيرة لا يكون لها حظ مقسوم ، والسبعة الأولى يكون لها نصيب معلوم ، كما أشار إلى ترتيب الرواة للنافس وأن منهم من قال هو الرابع ومنهم من قال بل هو الخامس . ونمضى إلى المقامة التاسعة عشرة فنجده ينظم أيام العرب وحروبهم في الجاهلية ، ثم نتقدم إلى المقامة السادسة والثلاثين ، وهي المسماة بالطائية فنجد حاسته اللغوية تعود إليه ، ويعود معها نظمه للأسماء المتشابهة ، وهو يبدأ ذلك

بِعَرَضِ أَسْمَاءِ الْجَمَاعَاتِ فِي الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ يَقُولُ :

زُجْلَةٌ^(١) نَاسٍ حَاصِبُ الرَّجَالِ هَكَذَا كَوَكْبَةٌ الْخِيَالِ
رَهْطُ رَجَالٍ لُئِمَةُ النِّسَاءِ رَعِيلُ خَيْلٍ وَقَطِيعُ الشَّاءِ
وَرَبْرَبُ الْمَهْمَا^(٢) صَوَارُ الْبَقَرِ حَيْلَمَةُ مَعَزٍ عَانَةُ مِنْ حُمُرٍ
وَصِرْمَةٌ مِنْ إِبِلٍ وَعَرَجَلَمَةُ مِنْ السَّبَاعِ قَدْ حَكَمْتُهَا النِّقْلَمَةُ
خَيْطُ النِّعَامِ وَمِنْ الْجَرَادِ رَجُلٌ وَسَرَبٌ مِنْ طِبَاءِ الْوَادِي
وهَكَذَا عَصَابَةُ الطَّيْرِ وَرَدٌ وَخَشْرَمُ النَّحْلِ تَتِمَّةُ الْعَدَدِ

ويخرج من ذلك إلى نظم عدو الخيل ومراتبه من مثل الخبب والتقريب والإحضار ، ثم ينظم مراتب سير الجمال من مثل الديب والذمل والرسم والوحد والإرقال . ثم يتنقل فينظم أنواع المشى للإنسان والحيوان ، فالصبي يدرج والشيخ يدلّف والفتى يخطر والمرأة تمشي والرجل يسعى والرضيع يحبو والفرس يجري والغراب يحجل والنعام يهّج ، ثم يذكر ترتيب جماعات العسكر ، فينشد :
أَقْلُ جَمْعُ الْعَسْكَرِ الْحَرِيدُ وَبَعْدَهَا السَّرِيَّةُ الْمَزِيدُ
وَفَوْقَهَا كَتَيْبَةُ تَمِيسُ فَالْجَيْشُ فَالْفَيْلَقُ فَالْخَمِيسُ

ثم ينشد مراتب النخيل من مثل الفسيلة لصغرى النخل ، ثم القاعدة والعيدانة ، ثم الباسقة ، ثم السحوق الشاهقة . ولا يكتفي بذلك بل ينظم أيضاً ثمر النخل وأسماءه على الترتيب ، فأوله طلع ثم سياب فخلال فبغو فبسر .

وعلى هذا النحو تتحول المقامة إلى ما يشبه متنا من متون اللغة ، وهو متن على الطريقة المعروفة عند العرب إذ حوّلوا معارفهم إلى أراجيز ، وكان لليازجي أراجيز مختلفة . وهو يطبق هذا اللون من نظم المعارف في مقاماته ، فإذا جوانب منها تتحول إلى متون للحفظ والتسميع .

ولا يكتفي بما قدم في المقامتين السابقتين من مثل هذه المعارف ، فنحن نراه

(١) واضح أنه يجعل الجماعة من الناس عامة زجلة ، أما من الرجال فحاصب وأما من الخيالة فكوكبة ، وهلم جرا . (٢) المها : بقر الوحش .

في المقامة الثامنة والثلاثين ينظم مراحل الحياة الخاصة بالرجل ، فهو جنين في الحشا ، ثم طفل ثم صبي ثم غلام ثم يافع ثم فتى . وكذلك ينظم مراحل الصفات الخاصة بالمرأة وما يخصها دون الرجل فهي كاعب وناهد ونصف وكهله وعانس . وينظم أشكال الإشارة فالإنسان يشير باليد ويومئ بالرأس ويومض بالجنف ويعجز بالحاجب ويرمز بالشفاه ويلسع بالثوب ويلوح بالكم . ويتنقل إلى ترتيب المطر ، فأواه الطل وبعده الرذاذ ثم النضج ثم الهطل ثم الوابل المنهل . أما الأنهار فأصغرها الجداول ثم السرى ثم الجعفر . وأما الجبال فأصغرها التسبكة ثم الراية ثم الأكمة فالزبسية فالنجدوة فالقف فاهضبة ، وأما الغبار فالخاص منه بالحرب يسمى القسطل وأما العشير فخاص بغبار الأرجل ، وما يثيره الحافر يسمى نقعاً ، وما تهيجه الريح يسمى عجاجاً . وما يزال حتى يذكر أنواع الخيوط ، فللخرز السلك وللجوهر السمط ولحيط الإبر النصاح وللبناء الزيج . ونمضي إلى المقامة الحادية والأربعين المسماة بالتهامية فنجده ينظم الأصوات التي وضعتها اللغة لمختلف الأشياء ، وهو يستهل ذلك بقواه :

هزيرُ رِيحٍ وحفيفُ الشجرِ هزيمُ رَعْدٍ ودوىُ المطرِ
وسواسُ حِلْيَةٍ صليلُ النَّصْلِ قلقلةُ المِفْتَاحِ ضَمْنُ القِفْلِ

ويستمر فيذكر كل ما يمكن أن يمر بالخاطر من مثل رنة القوس وضرب الأقاليم وعزيف الجن وزفير النار ونغم المغنى وغطيط النائم وعويل الباكي وقهقهة الضاحك وإهلال المولود وحشجة المختصر وحنين النوق وصهيل الخيل وشحيج البغل ونهيق الحمار وخوار العجل وهدير الجمال وثغاء الشاء وخرير الماء وزفير الأسد وضباح الثعلب وبُعْغام الظبي وعُواء الذئب ومُواء القط ونُبْباح الكلب ونعيب الغراب وهديل الحمام وسَجْجَعُ القُمُرى وشَقْشَقَةُ العصفور وزُقاء الديك وفحيج الأفعى وطنين الذباب .

أرأيت كيف تتحول المقامة إلى متن لغوي قصير ، يجد فيه الطلاب وسيلتهم إلى حفظ موضوع مهم من الموضوعات اللغوية ؟ وإن في ذلك ما يدل على أن

اليازجى نسي مهمة المقامة الأولى وغايتها من عرض الأساليب الأدبية ، وكأنما خيل إليه أنها ألواح لغوية للحفظ والتسميع . ولعل ذلك ما جعله يعرض علينا فى المقامة الخامسة والأربعين الكلمات التى تتابها الظاء والضاد من مثل الظهر والضهر والقيظ والقيض والظَّبَّ والضَب . أما المقامة السابعة والأربعون فقد عرض فيها لمراتب أسماء الخيل وألوانها من مثل أدهم وأبيض وأحمر وأشقر وأبرش وأبقع وأشهب وكيت وأحوى ، حتى إذا استوفى ذلك فى الخيل ذهب يأتى بنظيره فى الجمال .

ونراه فى المقامة التاسعة والأربعين المعروفة بالبنانية ينظم أسماء القِطْع فالحَرْز للصوف والحَصْد للنبات اليابس والجَدْع للأنف والقَص للشعر والتَقْلِيم للظفر والْقَطُّ للقلم . ثم يذكر أسماء الكَسْر فالشَّجُّ للرأس والهشم للأنف والهَمُّ للسنن والقَصْم للظهر والحَطْم للعظم والهَصْر للغصن . وينظم الحِصَص والقِطْع ، فالقطعة من الخبز كسرة ، ومن الكبد فلذة ، ومن الشراب صُبابة ، ومن النار جاذوة ، ومن الشعير خصلة ، ومن الثوب خِرْقَة .

ونجد ألواناً من هذه الطُّرُف اللغوية فى المقامات الثانية والخمسين والسابعة والخمسين والثامنة والخمسين . وهو يُخصى ذلك ويستقصيه فى أبيات من الرجز ، بالضبط كما كان يصنع أصحاب الشعر التعليمى . فهو معلّم ، وهو لا يعلم اللغة وحدها بل يعلم طرفاً من التاريخ ومن ألعاب الحريرى البلاغية . وليس ذلك حسب ، فهو يعلم أيضاً العروض ، وقد خصّه بالمقامة الحادية عشرة المسماة بالعراقية ، إذ نثر فيها مصطلحاته وأوزانه ، وألقاب قوافيه شعراً ورجزاً . ولا يكتفى بكل ذلك ، فلا يزال يرى أن تكون مقاماته من القوة والمتانة بحيث تجمع فى جعبتها أكثر ما يمكن من معارف ، ولعله من أجل ذلك خصَّ الطبَّ كما كان يعرف فى عصورنا الوسطى بمقامة ، هى المقامة الثلاثون المسماة بالطبية ، كما خصَّ الفلك بالمقامة الثامنة والعشرين وأسمائها الفلكية ، وفيها نراه ينظم بروج السماء ، يقول :

من البروج في السماء الحملُ تنزل فيه الشمسُ إذ تعتدلُ
والثورُ والجوزاءُ نعم المنزلةُ وسرطانُ أسدُ وسنبلةُ
كذلك الميزان ثم العقربُ قوسُ وجدي دلو حوت يشربُ
ثم ينظم منازل القمر من مثل الثريا والدبران والنشرة والسمك وسعد السعود
وسعد الأخبية، حتى إذا أكمل ذلك انتقل ينظم لياليه المسماة وطوالع أضوائه وغوارب
أنوائه وأمطاره، وهو في ذلك كله يستخدم الرجز كأنه السيل الذي لا ينقطع .
ولا ريب في أن هذا الجانب في المقامة اليازجية يدل على براعة صاحبها ،
غير أنها براعة لغوية أو علمية ، فنصبح وقد انحرفنا عن رياض الأدب والفن ،
إلى وهاد اللغة والعلم الخافة ، التي قلما نجد فيها روحاً أو ريحانا .

وقد يكون اليازجيّ اندفع في ذلك بحكم حبه للعرب ، إذ كان يتعصب لهم
تعصباً شديداً ، وقد مدحهم وأشاد بهم في غير مقامة ، وأبى أن يتعلم لغة
أجنبية ، وأن يتثقف بالآداب الأوروبية ، واكتفى كما هو واضح في مقاماته
بالثقافة والآداب العربية الخالصة . ثم انطلق يحنّدى على أمثلة القوم ، ومثال
الحريّ خاصة ، متفاعلاً مع ما خُلفوه من تاريخ وأمثال ولغة وغير تاريخ
وأمثال ولغة ، كأنه يراهم النماذج التي لا تجارى ولا تبارى حتى في ثقافتهم
ومعارفهم .

على أنه ينبغي أن لا يظن القارئ أن اليازجيّ بسّنى مقامته كلها من هذه
المواد التي صوّرتها ، فبين مقاماته مقامات خفيفة ، ليس فيها كل هذه الأدغال
والأعشاب التي رأيناها حتى الآن . ونحن نعرض نموذجاً طريفاً من نماذجه ،
وهو المقامة الرابعة عشرة المسماة بالهزلية ، ليتضح للقارئ من جميع جوانبه ،
يقول :

« حكى سهيل بن عبيّاد ، قال : كان لى زوجة صناع اليدين ، كريمة
النبعة^(١) ، فحسدنى عليها المسنون ، وخانى فيها الدهر الحثون ، فلبثتُ

(١) النبتين : الأب والأم .

بعدها طويلا ، أرددُ زفرة وعويلا ، وأنوح بُكْرَةً وأصيلا ، حتى حال^(١)
 عليها الحولُ ، وآلت الفريضة، إلى العَوَل^(٢) ، فناجيتني الحوْبَاءُ^(٣) ، أن
 أستبدل ما طاب لي من النساء . ولما لم أجد في الحَيِّ ، من تروق بعيني ، أزمعت
 الاغتراب ، وبكُرت بُكُورَ الغراب ، فهَمَّ سَلَجَتْ^(٤) سحابة النهار على
 هَمَّ سَلَعَةٍ^(٥) عُبْرٍ^(٦) أسفار ، حتى إذا جُنُحَ الظلام رفرف ، نزلت بقاعٍ
 صَفْصَفَ^(٧) ، في خلال نَفْنَفٍ^(٨) . فبينما أَلْقَيْتُ وسادى ، وتَلَقَّيْتُ ماء
 زادى ، سمعت غطيظا^(٩) كأطيظ^(١٠) البعير ، وزفرات تتصاعد كالزفير^(١١) ،
 فجنحتُ عن القمر^(١٢) إلى السمر ، وأخذت لنفسي الحذر ، ولبثتُ أتنكَّبُ
 الغُصْنُصْ^(١٣) ، وأقلَّبُ طَرَفِي بين السماء والأرض ، وإذا جارية قد تنهَّدت ،
 ثم أنشدت :

هل من سبيلٍ لي إلى العَمَاقِ^(١٤) من رِقِّ ظُلُمٍ أو إلى الإِبَاقِ^(١٥)
 ما زلت من ذلك في وثاق تكاد روحى تبلغ التراقِ^(١٦)
 أطوى على الطَّوَى^(١٧) من الإملاق حتى إذا امتدَّتْ دُجَى الأَغْسَاقِ
 أضوى^(١٨) إلى شَيْخٍ جَوٍّ خَفَّاقِ^(١٩) واهى القَوَى مُنْهَتِكِ الصَّفَاقِ^(٢٠)

-
- (١) حال : أتى . (٢) العول عند الفقهاء : هو أن الفروض الخاصة بالورثة تزيد ،
 فيقل نصيب الوارث . كنى بذلك عن زيادة مدة البكاء على القدر المفروض . (٣) الحوباء :
 النفس . (٤) هلمج : أسرع في السير . (٥) هلمعة : نافقة سريعة .
 (٦) عبر أسفار : معودة على السفر . (٧) صفصف : مستو .
 (٨) نفنف : هوة بين جبلين . (٩) الغطيظ : صوت النائم . (١٠) الأطيظ :
 صوت البعير من خياشيم . (١١) الزفير : صوت لهب النار . (١٢) يريد : حيث
 يقع ضوءه . (١٣) أتنكب الغمص : أتجنب النوم . (١٤) العتاق : الانعتاق
 والانطلاق . (١٥) الإباق : الفرار ، ويقال للعبد الرقيق خاصة . (١٦) التراقى :
 عظام أعلى الصدر . (١٧) الطوى : الجوع . (١٨) أضوى : أضْم .
 (١٩) جو : صفة من الجوى ، وهو الألم في الصدر . (٢٠) الصفاق : من أغشية البطن .

ذِي لَحْيَةٍ أَثِيثَةٍ^(١) الْأَعْرَاقِ تَضْرِبُهَا الرِّيحُ فِي الْآفَاقِ
تَلَبَّدَتْ طَاقًا وَرَاءَ طَاقٍ كَأَن فِيهَا مَرَبِضٌ^(٢) النَّيَاقِ
مِنْهَا دُثَارٌ^(٣) اللَّيْلِ حَتَّى السَّاقِ وَظُلْمَةٌ^(٤) النَّهَارِ كَالرَّوَّاقِ^(٥)
يَجْرِي عَلَيْهَا رَمَصٌ^(٦) الْآمَاقِ وَوَضُرُّ الْمُخْطَاطِ وَالْبُصَاقِ
حَتَّى تَرُدَّ الْمُشْطَ بِالْإِزْلَاقِ فَهَلْ كَرِيمُ النَّفْسِ وَالْأَخْلَاقِ
يَحْتَالُ لِي بِفَرَجَةِ الطَّلَاقِ وَهَيْئَتُهُ مَالِي مِنَ الصَّدَاقِ
وَزِدَّتُهُ تُبَوِّئِي إِلَى السُّطَاقِ

قال سُهَيْل : فَمَا فَتَنَتْ بَفَصَاحَتِهَا ، وَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَى قَيْدِ مَلَا حَتِهَا ،
وَقُلْتُ : لَا جَرَمَ لَإِنَّهُ قَدْ خَازَمَنِي^(٧) التَّوْفِيقُ ، مِنْ مَعَاجِيلِ^(٨) الطَّرِيقِ ، فَأَنْشَدْتُ :
الْحَمْدُ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ الثَّقَفَةُ قَدْ صَادَفَ الْكُحْلُ سَوَادَ الْخَدَقَةِ
وَاهِيًا لِهَذِي الطَّرْفَةِ الْمُتَفَقِّعَةِ إِنَّمَا تَعْقُلُ : وَافَقَ شَنْ طَبِيعَةِ^(٩)
فَإِنَّا أَحْمَقُ مِنْ هَيْئَتِهَا^(١٠)

قال : وَإِذَا بِالشَّيْخِ قَدْ اسْتَوَى ، وَقَالَ : مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ،
وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى^(١١) ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

قَدْ عَلِمَ اللَّهُ الَّذِي لَهُ الْبَقَا لَو تَرَكَ الدَّهْرُ لَكَفَيْ رَمَقًا^(١٢)
لَمْ تَبْقَ إِلَّا رَيْثٌ^(١٣) أَنْ تَطْلُقَا وَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي فُؤَادًا شَيْقًا
وَلَا ذَكَرْتُ جِيدَهَا الْمَطْوَقَا وَلَا جَبِينَهَا النَّقَّ الْيَتَقَقَا^(١٤)
وَلَا سَوَادَ عَيْنَيْهَا ذَاتَ الرُّقَى وَلَا مُحْيَاَهَا الْجَمِيلَ الْطَلِقَا^(١٥)

(١) أَثِيثَةٌ : كَثَّةٌ وَمُلْتَفَةٌ . (٢) مَرَبِضٌ : مَأْوَى . (٣) دُثَارٌ : غَطَاءٌ .
(٤) الظَّلَّةُ : مَا يَسْتَظِلُّ بِهِ مِنَ الشَّجَرِ وَغَيْرِهِ . (٥) الرَّوَّاقُ : السَّقْفُ فِي مَقْدَمِ الْبَيْتِ .
(٦) الرَّمَصُ : مَا يَسِيلُ مِنَ الْعَيْنِ الْمَرِيضَةِ . (٧) يَقَالُ : خَازَمَهُ : إِذَا أَخَذَ كُلُّ مَنِهَا
فِي طَرِيقٍ ثُمَّ تَلَاقَا . (٨) مَعَاجِيلُ : مَحْتَصِرَاتُ . (٩) مِثْلُ الشَّيْخَيْنِ أَوْ الشَّخْصَيْنِ
يَتَطَابِقَانِ . (١٠) هَيْئَةٌ : عَرَبِيٌّ قَدِيمٌ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْحَقِّ . (١١) الْعِبَارَةُ كُلُّهَا
اِقْتِبَاسٌ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ سُورَةُ النِّجْمِ ، انْظُرِ الْآيَتَيْنِ ٢ ، ٣ . (١٢) الرَّمَقُ : الْفَضْلَةُ مِنَ الْمَالِ .
(١٣) رَيْثٌ : زَمَنٌ . (١٤) الْيَقُّ : الشَّدِيدُ الْبَيَاضُ . (١٥) الطَّلِقُ : الْمَشْرِقُ .

ولا حديثها وذاك المنطقاً لكن لها على مهتر سبباً
ومهر أخرى بعدها قد لحقاً فانما الإنسان زوجاً خلقاً
فإن أَرَّ المَهْرَيْنِ عندي غسَقاً (١)
لا عيش للزوجين لم يتفقاً ومن تراه معرضاً قد وثقاً
بالهجر فاهجره إلى يوم اللقا (٢)

قال : فاستفترتني أبيات الشيخ فرحاً ، حتى كدت أصفق مرحباً ، ولم
أتمالك أن دلفت (٣) إليه دلفةً من تيمن (٤) ، وقلت : حياً الله الشيخ
فمن أنت ومن ؟ قال : أنا المبارك بن ربحان ، من بطون قحطان ، وإنى
لأرى الفتاة قد شغفتك حباً ، وخلفت منك لباً ، فإن كنت تملك
النقد (٥) ، فابذل للجبين (٦) ، واغتنم قررة العيين .

قال : فسهل على الوجد بذل الجدة (٧) ، ونفحته (٨) بما معي حتى
أفعم رُدنه (٩) ويده ، فأشهد (١٠) عليه الله والملائكة المقرئين ، وقال لي : بالرفاء (١١)
والبنين . فلما طرحت النقد ، واستبحت العقد (١٢) ، أردت أن أتحوّل بأهلي ،
إلى رحلي ، فقال : حاشا لك أن تتركني الليلة سمير الفرقدين (١٣) ، ولكن غداً
تذهب أنت بالعروس وأنا بخفّي حُسين (١٤) . فبت عنده ليلة المسوع (١٥) ،
وعني لا يأخذها الهجوع ، حتى آذن الصبح بالطلوع . فتبينت ، وإذا الفتاة
ليلى الخزامية والشيخ أبوها ميمون ، فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون (١٦) ، ما أرى

(١) غسقاً : ليلاً . (٢) يوم اللقا : يوم القيامة . (٣) دلفت : تقدمت .

(٤) تيمن : تبرك . (٥) النقدين هنا : مهر الأولى والثانية اللتين أشار إليهما فيما سبق .

(٦) اللجين : الفضة . (٧) الجدة : المال . (٨) نفحته : أعطته .

(٩) رُدنه : كره . (١٠) يريد أنه أشهدهم عليه بالطلاق . (١١) الرفاء :

الاتفاق والألفة . (١٢) يريد بالعقد عقد الزواج . (١٣) الفرقدان : نجمان

يهتدي بهما ، وسمير الفرقدين : كناية عن تفرده ووحده . (١٤) مثل يضرب في الرجوع

بالحيلة . (١٥) المسوع : الذي لسعته الحية ، والعبارة تجري عند العرب مجرى المثل .

(١٦) العبارة هنا اقتباس من القرآن الكريم ، سورة البقرة آية ١٥٦ .

بَعْلَ هَذِهِ الصَّبِيَّةِ ، إِلَّا كَعُكَّاشٍ ^(١) بَعْلَ طَمِيَّةٍ ، فَاسْتَغْرَبَ الشَّيْخُ فِي الضَّحْكَ ، ثُمَّ أَنْشَدَ غَيْرَ مَرْتَبِكٍ :

سَلاماً يَابْنَ عَبَّادٍ سَلاماً أَكْهَلًا قَمَتَ فِينَا أُمُّ غُلَاماً
أَرَيْتَكَ ^(٢) ، إِنْ مَلَكَتْ طَلاقَ لَيْلٍ فَهَلْ ^(٣) عَقَدْتُ مَلَكَتَ بِهِ الزَّامَا
عَرُوسٍ لَيْسَ تَخْلُو مِنْ خُدَاعٍ وَقَدْ لَا تَتَعَدَّمُ الْحَسَنَاءُ ذَا مَا ^(٤)
فَطَلَّقَهَا ^(٥) ، كَمَا طَلَّقْتُ وَأَعْلَمُ لَقَدْ جُعِلْتُ عَلَى كُلِّ حَرَامَا
عَرَفْتُ وَقَائِعِي فِي كُلِّ أَرْضٍ وَلَكِنْ لَسْتُ تَعْرِفُهَا تَمَامَا
وَلَسْتُ تَرَى سَقَامًا فِي مَرِيضٍ فَتَعْرِفُهُ كَمَنْ ذَاقَ السَّقَامَا
رَزَأْتُكَ ^(٦) ، يَا أَعَزَّ النَّاسِ عِنْدِي لَشِدَّةٍ فَاقَةَ بَرَّتِ الْعِظَامَا
وَرَبَّ كَرِيمَةٍ أَكَلْتُ بَنِيهَا إِذَا جَاعَتْ وَلَمْ تَجِدِ الطَّعَامَا

قال : فقلت له : شهد الله إنك لأمكرٌ أهل الخافقين ^(٧) ، وأقدرهم على الزَّيْنِ والشَّيْنِ ، قال : يا بُنَيَّ ! إِنْ الْخَلَّةَ ^(٨) تَدْعُو إِلَى السَّلَةِ ^(٩) ، وَالصَّدْقَ خَمَرٌ مَزَاجُهَا الْكَذِبُ ^(١٠) ، وَالْجِدْ ثَوْبٌ طَرَاظُهُ اللَّعِبُ ، وَرُبَّ طُرْفَةٍ ^(١١) ، خَيْرَ مِنْ تَحْفَةٍ ^(١٢) ، فَإِنْ كُنْتَ قَدْ ظَمِئْتَ إِلَى الضَّحْلِ ^(١٣) ، وَنَسِيتَ أَنْ لَا بَدَ دُونَ الشَّهَدِ مِنْ لَبَرِ النَّحْلِ ^(١٤) ، فَهَبِ الْمَالَ عِنْدِي كَمَا حُدِيَ الْقُرْصُ ^(١٥) ، رِيثًا أُرْزَأَ مِنْ أَسْتَنْصَ ^(١٦) لَكَ مِنْهُ الْعِرَوضُ . قلت : قد علم من عنده علمُ الغيبِ

(١) عكاش : جبل في بلاد العرب يقابل أرضاً يقال لها طمية ، فهما متلازمان ، والكناية واضحة . (٢) أريتك : أرايتك : أخبرني . (٣) يلفت صاحبه إلى أن الزواج لا يكون إلا بعقد ، بخلاف الطلاق ، فكيف يظن أنها زوجته ، وهو لم يعقد عليها ؟ ! (٤) مثل مشهور ومعناه واضح . (٥) يقول له ذلك من باب التهكم كأنه أصبح بعلاً لها فعلاً . (٦) رزأتك : أصبتك بأخذ المال .

(٧) الخافقين : الشرق والغرب . (٨) الخلَّة : الفقر . (٩) السلة : السرقة . (١٠) يشير إلى أن الكذب مزاج الصدق كما أن الماء مزاج الخمر . (١١) طرفة : ملحّة . (١٢) تحفة : هدية . (١٣) الضحل : الماء القليل . يريد به هنا المال الذي أخذه منه . (١٤) مثل يضرب للدلالة على أن الطرائف لا يوصل إليها إلا بعد طول الجهد . (١٥) يريد أنه عنده قرض وسلف . (١٦) أستنص : آخذ .

أن هذه الطرفة عندى خير من نخل هَجَرَ^(١) وعرائس الحَصِيب^(٢) ، فاعتنقنى
 كمن تملق^(٣) ، وقال كلانا أفلَس من ابن المُدَلِّق^(٤) ، فمن أحرَزَ المال
 فعليه الإنفاق يعلّق . قلت : أنا والمال فى يدك ، وكلانا لك وإليك ، قال :
 حَيَّاك الله فسنستبدلُ الجِسمَ بالتَّسمُر^(٥) ، ولكن اليوم خمر ، وغداً أمر .
 فقضىناه يوماً صفاً زُلاله^(٦) ، وغاب عُدَّاله ، إلى أن آذنت الشمس بالأفول ،
 وهمَّ النجم بالقفول^(٧) ، فجلسنا على الطعام معا ، ثم أخذ كلُّ منا مضجعاً ،
 وطفق الشيخ يُطرفنا من القِصَص ، بما يُسيغ الغُصَص .

وما زال كذلك مذ أطبقت الجَوْدَةُ^(٨) على الصُّمَيْر^(٩) ، حتى أقبل
 فحمة^(١٠) بن جُمَيْر ، فران^(١١) على جَنَفَتى الكَرَى ، حتى سقطتُ على
 الثَّرَى ، محلول العُرى ، لا أسمع ولا أرى . فلم أنتبه إلا وقد ذرَّ^(١٢) قترن الغزاة
 الضاحى^(١٣) ، ولا رجل ولا امرأة فى تلك الضواحي ، فاستعذت بالله من مكروه
 ونُكروه ، وثُرْتُ إلى الناقة لأرتحلَ فى إثره ، فلما دَتَوْتُ من قَتَبِها^(١٤) ، إذا
 رقعة قد كتب بها :

قُلْ لِسُهَيْلٍ إِذْ يَهْبُثُ فِي السَّحَرِ اعْدِرْ فخير الناس عندى مَنْ عَدَرَ
 خَلِقتُ مطبوعاً على كَيْدِ البَشَرِ وليس للإنسان تَغْيِيرُ الفِطْرِ
 وَلَا يُعَانِدُ الْقِضَاءَ وَالْقَدَرَ إِلَّا الَّذِى عَصَى الْإِلَهَ أَوْ كَفَرَ

-
- (١) هجر : بلد بالبحرين . وفى المثل : كستبضع القمر إلى هجر .
 (٢) الحصيب : موضع فى اليمن يوصف بجمال النساء . (٣) تملق : لاطف .
 (٤) عربى قديم لم يكن عنده قوت ليلة ، فصار مثلاً للإفلاس .
 (٥) الجمر هنا : كناية عن الشر ، والتمر : كناية عن الخير .
 (٦) زلاله : ماؤه العذب ، كناية عن طيب اليوم . (٧) القفول : الرجوع .
 (٨) الجوفة : اسم الشمس عند الغروب . (٩) الصمير : مكان غروب الشمس .
 (١٠) فحمة بن جيمر : نصف الليل . (١١) ران : غلب . (١٢) ذر قرن
 الغزاة : طلعت الشمس ، وقرنها : أول ما يبدو من طلوعها . (١٣) الضاحى : الظاهر .
 (١٤) القتب : الرجل .

وإن تجد سَيِّئَةً فيها نَدَرُ فكم وكم حَسَنَةً فيها عِبَرُ
 وإن يكن غَرَكَ منها^(١) ماظَهَرَ فتلك لا علم لها ولا خَبَرُ
 إلا الذى عَلَّمَتْها فيها اسْتَبَرُ فإن تُردُّ صاحبَ هذه الغُرُرِ^(٢)
 فخذُ أباهَا إنه أَسُّ العِبَرِ

فلما قرأت تلك الرقعة ، عجبت من تلك الرقاعة ، وعلمت أنه لا يحول
 عن هذه الصنعة ولا يترك هذه الصناعة ، فشكرت نعمته إذ لم يأخذ الناقة ،
 ورجعت أدراجي لما اعترض دون سَقَرِي من الفاقة .

وأظن في هذه المقامة ما نطلع منه على جملة الصفات والخصائص التي يتميز
 بها اليازجي ، فاسمها المقامة الهزلية ، ومعنى ذلك أنه حاول أن يجري فيها تياراً من
 الهزل والفكاهة على نحو ما رأينا عند بديع الزمان والحريري .

والقارئ يلاحظ معنا أن فكاهة اليازجي جامدة وأن تيارها لا يتدفق ، فمن
 غير شك هذا التيار أقوى عند بديع الزمان والحريري منه ، وكأن طبيعة اليازجي
 الجدية حالت بينه وبين روح الدعابة والفكاهة .

فتوقف هذا التيار وتقطع وظهر في هذه الصورة التي لا نبالغ إذا قلنا إنها
 صورة جامدة ليس فيها انطلاق ، وليس فيها خفة ولا رشاقة ، وكأنما كان
 اليازجي - برغم علمه الواسع باللغة والثقافة العربية - يجهل الدروب والمسالك
 التي تؤدي به وبقرائه إلى واحات بهيجة .

وإن أساليبه لتدخل في صحارى الجزيرة العربية بأكثر مما تدخل أساليب
 البديع والحريري ، فقاماتهما يظهر فيها أثر الحضارة العباسية وما اكتسبته اللغة
 من مقامها في بغداد وعواصم فارس والعراق ، إذ تهذبت ، وتحولت إلى ما يشبه
 التحف الدقيقة ، وأصبحت جزءاً من هذا الفن العربي الفخم الذى نراه في
 واجهات المساجد والبيوتات وسقوفها الأثرية .

(١) منها : أى من المرأة .

(٢) يقول له : إذا أردت أن تأخذ أحداً بما حدث ، فخذنى لأنى أنا صاحب هذه الفنون .

وهما يسجعان حقاً ، ويسجع اليازجى ، ولكن السجع عندهما حلية ، أما عند اليازجى فتحس كأنه غريب عن اللغة التى يُعَرَّض فيها ، فهى لغة صحراوية متبدية ، بل لعل بدويّاً صحراويّاً لا يستطيع أن يسلك فى أدبه كل ما نجده عند اليازجى من ألفاظ مهجورة .

وقد يكون هذا التبدى أو هذه البداوة أخطر شىء أصاب فن اليازجى لا فى المقامة وحدها ، بل فى كل ما خلّف وترك من آثار نثرية أو شعرية . ونقول أخطر شىء ، لأنه باعد بينه وبين الطبيعية والطبع ، وبالتالي باعد بين عصره وآثاره وأعماله ، فإن من عاشوا معه لم يجدوا فى فنه مرآة لحياتهم ، وإنما وجدوه مرآة لغيرهم ، وهى مرآة تتعمق فى القدم حتى تصل إلى العصر الجاهلى بأمثاله الغريبة وألفاظه المهملة .

وهو فى هذا يقترب من ذوق أبى العلاء المعرى فى نثره ، إذ اتخذه وسيلة لإظهار معلوماته ومحفوظاته اللغوية . ولكن أبى العلاء استعان بالفكر والفلسفة وما اشتهر به من التعمق فى الآراء ، فلم تَبْدُ عيوب هذه الطريقة واضحة كما بدت عند اليازجى ، لأن أبى العلاء سترها بالفكر الدقيق العميق ، ولم تكن لليازجى فلسفته ولا أفكاره .

فخرجت مقامته مهلهلة النسيج ، وهو نسيج بدوى ، لم تتدخل فيه يد الحضارة إلا قليلاً ، على الرغم من أنه استخدم السجع ووشى ألفاظه بألوان البديع . ولكن هذا كله عنده يأخذ شكل طلاء خارجى ، وهو طلاء لا يكاد يندمج فى أساليبه وعباراته ، لما بين الطلاء والمطلّى من المفارقة والمباعدة والمنافضة أحياناً .

ومعنى ذلك كله أن مقامة اليازجى لا ترتفع إلى مراقي مقامتى البديع والحريرى ، لأنه ضلّ اللغة التى يستخدمها ، فلم ينقل من كتب الأدب ، وإنما نقل من المعاجم ، واختار خاصة أن ينقل من مهجورها ووحشيتها وآبدها . فتخلّفت مقامته ، ولم ينفعه علمه باللغة ، بل لعل هذا العلم هو الذى أضرّ

به ، وكذلك لم تنفعه شاعريته ، بل لعل هذه الشاعرية هي الأخرى أضرت به فإنه استغلها في عمل أراجيزه اللغوية والعلمية التي تحدثنا عنها طويلا .

وبذلك أصبحت صحف مقامته أشبه ما تكون بصحف الأدب التعليمي ، فهو يسلك فيها أوابد الكلمات منشورة ومنظومة ، وهو يكثر من ذلك حتى يمل قارئه ، لكثرة ما يعرضه من هذه الصخور .

وقد تكون هذه الصورة التي انتهت إليها المقامة عنده هي السبب الحقيقي في أن أدباءنا المحدثين نفروا من الجسرى والسبّقى في هذا المضمار ، كأنهم وجدوه لا يلائم الذوق الحديث . وإننا لنأمل أن يجد هذا الفن من الشباب من يعيد إليه الحياة ، ومن يهب له حيوية خصبة ، لا في إطاره السابق ، بل في إطار جديد ، لا يرتبط بالموضوع البسيط القديم ولا بأبطاله الشحاذين ، وإنما يرتبط بحياتنا الاجتماعية الحديثة وما بها من لواذع السخرية في الكلام والمواقف .

فهرست

الصفحة	
٦ - ٥	مقدمة
١٢ - ٧	معنى المقامة
٧	١ - المعنى اللغوي
٨	٢ - المعنى الاصطلاحي
٩	٣ - خصائص وصفات
١٠	٤ - في الآداب العالمية
٤٣ - ١٣	نشأة المقامة عند بديع الزمان
١٣	١ - بديع الزمان
١٦	٢ - تأليف بديع الزمان لمقامته
٢٤	٣ - الموضوع
٣٢	٤ - الأسلوب
٧٥ - ٤٤	مقامة الحريري
٤٤	١ - الحريري
٤٧	٢ - تأليف الحريري لمقامته
٥٤	٣ - الموضوع
٦٤	٤ - الأسلوب
١٠٢ - ٧٦	مقامات مختلفة
٧٦	١ - على مر التاريخ
٧٩	٢ - مقامة اليازجي
٨٣	٣ - خصائص وصفات في المقامة اليازجية

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٣٠٦٧/١٩٧٣

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣